
شخصيات
عربية
بقلم
صديق شيبوب

شخصيات عربية

بقلم

صديق شيبوب

ملتزم الطبع والنشر :

الوكالة العربية للدعاية والنشر

٧١ شارع ابو الدرداء تليفون ٢٦٤١٢ بالإسكندرية



الرئيس جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة

المقدمة

أولع الانسان منذ القدم باستطلاع أخبار الناس ومعرفة سيرهم ، خصوصاً اذا كان هؤلاء الناس من العظماء الذين أعجب بأعمالهم ، أو سمع بأسمائهم ، أو طالع كتبهم . ولهذا كانت كتابة التراجم من فنون التاريخ القديمة التى كثر روادها وتعدد المؤلفون فيها وقراءها .

ونحن اذ نكتب سير العظماء انما ندل على اعجابنا بهم ، ونشيد بالتضحيات التى قدموها ، والأعمال العظيمة التى قاموا بها ، ونفى بالدين الذى حملوه الانسانية ، ونقدمهم مثلا للشباب فى العمل الجد والاجتهاد المتواصل للبلوغ الى أعلى قمم الانسانية . وليس أولئك العظماء سوى شوامخ نتطلع الى سموها مبهورين معجبين .

وقد تطور فن كتابة التراجم والسير منذ العصور القديمة الى اليوم ، وأصبح فى عصرنا الحاضر متعدد الجوانب مختلف الطرق والمذاهب . فمن سرد متسق للاحداث ، الى صياغة على طريقة قصصية ، الى دراسة لعرض مايدل على العظمة ، الى تحليل عميق لتقديم صورة كاملة للمترجم له من مختلف نواحيه المعيشية والنفسية : وهكذا أصبح كاتب السيرة لا يكتفى بالسرد وصار يعتمد على فنون وعلوم أخرى يستمد منها وسائل تساعده على مزاولة عمله الفنى .

وبعد فيجد القارىء فيما يلى طائفة من تراجم لشخصيات عربية ، لم أختر أصحابها بقدر ما فرضوا أنفسهم على فى مختلف أطوار الحياة ، وقد كتبت هذه السير على الطريقة التقليدية ورأيت أن أقدم فيها قدر الطاقة صورة لادبهم ووصفا لمؤلفاتهم وفاء لفضلهم على ، وتشويقا لمطالعة كتبهم لما فيها من فائدة مرجوة .

رفاعة رافع الطهطاوى

يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى ركنا من أهم أركان النهضة العلمية والادبية فى مصر ، ودعامة من امتن دعائمها . فلا تذكر البعثات الى اوربا لطلب العلم ، وترجمة الكتب الى العربية ، ولا يشار الى تأليف الكتب للتعليم والتهذيب ، وتأسيس المدارس ، والصحافة ، وصقل الاسلوب ، لايذكر هـذا جميعه وغيره مما قامت عليه النهضة الحديثة وساعد على تهذيب القول ونشر الثقافة العامة ، إلا ذكر اسم رفاعه رافع الطهطاوى لأنه عمل فى سبيلها وترك فى كل فن من تلك الفنون اثرآ بارزا .

يقولون ان النهضة الحديثة فى مصر كانت نتيجة للحملة الفرنسية عليها ، وان المدافع التى اطلقها نابليون على المماليك دوى صوتها فى اذن الشرق فنبهه من سباته العميق . وهذا صحيح الى حد كبير . ففى مصر ايقظت الحملة فى نفوس الشعب روح الدفاع عن الوطن والتمسك باستقلاله والمطالبة بحقوقه ، ولفتت الانظار الى المستحدثات فى العلم وتنظيم الادارة وانشاء المكتبات العامة مما فتن الجبرتى فوصفه فى دهشة واعجاب .

ولما ولى محمد على انصرف همه الى تخريج طائفة من الموظفين يقومون بأعمال الإدارة ووجه جميع جهوده الى تدعيم الجيش دون أن يلتفت الى تعليم الشعب وتثقيفه :

كان يقصد من التعليم ايجاد اشخاص ينتفع بهم فى القيام باعباء الدولة وتنظيم شئون الجيش ، وكان يؤسس المدارس لتعليم الترجمة فتنقل الكتب العلمية والحربية الى العربية ، وينشىء مدرسة الطب لتخريج اطباء يعنون بصحة الجنود ،

ويرسل البعثات الى اوربا ليتعلم الطلاب فنون الحرب وسياسة الدولة وغير ذلك. ولكن الوعى القومى والحيوى لدى اولئك الذين انتدبهم محمدعلى لتلك الاعمال جعلهم يفطنون الى وجــوب تعميم التعليم والتثقيف حتى ينتفع اكبر عدد من ابناء الشعب .

وكان رفاعة رافع الطهطاوى فى طليعة اولئك المصلحين :

ولد رفاعة سنة ١٨٠١ بينما كان الفرنسيون يتأهبون للخروج من مصر ، بمدينة طهطا : وهو ، كما قال عن نفسه ، « ابن المرحوم السيد بدوى رافع ، الطهاوى بلداً ، الحسينى القاسمى نسبا ، الشافعى مذهباً » . ويقول مؤرخوه أن نسب امه كان يتصل بالانصــار . وقد انتقل به والده فى مديريتى جرجا وقنا طلبا للعمل ، وتوفى عنه وهو صغير ، فعاد الفتى الى طهطا حيث تكفله اخواله ، فحفظ القرآن ثم التحــق بالازهر ، وكان صغيراً ولكن حداثة السن لم تحل دون اقباله على العلم ، ولا شك فى انه كان ذكى الفؤاد ، حاد الذهن ، مجتهداً لأنه لم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى اتم دروسه ، وأخذ يدرس فى الازهــــر .

كان رفاعة وهو طالب فى الازهر قد اتصل بالشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥) الذى أصبح فيما بعد شيخاً للجــامع الازهر (سنة ١٨٣١) وكان من اعلام الازهريين البارزين ، واسع الثقــافة مطلعا على جميع علوم عصره . اكتسب من اتصاله بالفرنسيين فأفادوه بعض الفنون الشائعة فى بلادهم ، وأفادهم درس اللغة العربية ؛ ثم سافر طويلا فزار البلاد العربية وأقام فى دمشق ردحاً من الزمان ، وله شعر فى وصف حدائقها ومتنزهاتهــا . وقصد الى اشقودره فى البانيا واجتهد لنفسه فى تحصيل المعارف الحديثة مثل الطبيعة والفلك والهندسة

والمنطق ، واسند اليه تحرير الوقائع المصرية عند انشائها لما عرف عنه من جودة الأسلوب وسعة الاطلاع على العلوم المستحدثة ؛ وكانت هذه الصفات المتعددة النواحى تجعله موضع تقدير الوالى محمد على الذى كان يجله ويحترمه ؛

وكان اتصال رفاعة بالشيخ العطار فاتحة خير له ؛ فقد درس رفاعة فى الازهر كما قلنا ثم عين اماماً واعظا لفرقة من الجيش معروفه باسم « الاى المنسترلى » ؛

ولما اعتزم ارسال البعثة الأولى للدراسة فى أوربا رشح الشيخ حسن العطار مريده الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى لكي يكون اماما للبعثة : وقد سافرت هذه البعثة الى باريس سنة ١٨٢٦ وكانت تتألف من ٤٤ طالبا عاد منهم ثلاثة فيما بعد واتم الباقون دروسهم .وكان بينهم أربعة من الأرمن وثلاثة شيوخ عاد اثنان منهم وبقى الشيخ رفاعة ؛ وعين « جومار » الذى كان من أعضاء البعثة العلمية التى رافقت الحملة الفرنسية على مصر ، مشرفاً على البعثه؛ كما عين لكل واحد من اعضاء البعثة الدروس التى يجب عليه أن يتعلمها ، وهى : الادارة الملكية ، الادارة العسكرية ، الادارة البحرية ، السياسة ، نواميس العائلات ، الميكانيكات ، الهندسة العسكرية ، الطبجية ، اصطناع الاسلحة ومسابك الحديد ، الطبع والحفر ، الكيمياء ، الطب والجراحة والتشريح ، الزراعة ، التاريخ الطبيعى والمعادن ، الترجمة ؛

ونجد فى اختيار هذه المواد دليلا على القصد من ارسال البعثة ، ورغبة فى الانتفاع باعضائها فى ادارة الدولة ونظام الجيش والوسائل العملية التى تساعد على نشر العلم ومنها الطباعة والترجمة ؛

والحق أن شأن هذه البعثة كان عجيبا فقد وصل اعضاؤها إلى بلاد يجهلون

منها كل شيء حتى لغتها ؛ فكان عليهم أن يتعلموا هذه اللغة ليستطيعوا الاستفادة من اساتذتهم فى العلوم الأخرى . وقد اقاموا عاماً تقريباً فى منزل واحد يسميه رفاعة « بيت الافندية » وكانوا « لايخرجون منه ليلا نهاراً الا يوم الأحد . . . بورقة اذن للبواب من الضابط الذى نظره عليهم محمد على » وقد اقام عليهم من بينهم ثلاثة رؤساء يتولون هذه النظارة بالمناوبة . وقد وصف رفاعه فى كتابه « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » نظام الدروس التى كانوا يتلقونها فى هذا البيت ، وهى تدلنا على الجهود التى كان يبذلها هؤلاء الطلاب :

قال : « ... ابتدأنا فى مرسيليا قبل وصولنا إلى باريس وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى ثم لما ذهبنا إلى باريس مكثنا جميعا فى بيت واحد وابتدأنا فى القراءة فكانت اشغالنا مرتبة على هذا الترتيب وهو أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنسية ، ثم بعد الظهر درس رسم ثم درس نحو فرنساوى وفى كل جمعة ثلاثة دروس فى الهندسة .

« وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معاً فى اللغة الفرنساوية وفى هذه الفنون المتقدمة لكن لم يحصل لنا عظيم مزيد إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوى. ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب أولاد الفرنساوية أو بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم ... »

ويعين رفاعة فى فصل آخر هذه المكاتب بأنها كانت بنسيونات ، ويصف النظام الذى سن لهم فيها بحيث لايخرجون إلا فى أوقات معينة ويرجعون فى شئونهم إلى رؤساء البعثة ويقدمون كل أسبوع بيانا عن درسهم .

ويقول جرجى زيدان انه « كان لهذه الإرسالية دوى فى عالم الأدب بأوربا ولا سيما فى باريس ٠٠٠ فعنى بعض المصورين فى تصوير أفـراد تلك الارسالية كما رأوهم بأزيائهم الشرقية وعمائمهم العربية لتحفظ فى المتاحف . وطبع آخرون من تلك الصور نسخاً قليلة يعز وجودها » ويذكرنا هـذا الذى رواه جرجى زيدان بما جاء فى أحدى « الرسائل الفارسية » للكاتب الفرنسى « مونتسكيو » ؛ وفيها يروى الفارسى الذى كتبت تلك الرسائل على لسانه حفاوة أهل باريس به عندما كان يخرج مرتديا ثيابه المزركشة وعمته الغريبة ثم أهمالهم له عندما عاف هذه الثياب وارتدى ملابسهم . والشيخ رفاعة يذكر أن الباريسين كانوا يعتقدون فيهم اليسار لأنهم كانوا يرتدون زيهم الغريب ؛

لم يكن رفاعة رافع الطهطاوى أول مصرى زار باريس ، أو عرف بزيارته لباريس: فهناك بعض الاتباع الذين صحبوا نابوليون عند عودته من مصر إلى فرنسا وانصرفوا إلى خدمته وكانوا يعرفون باسم « مماليك نابليون » وأشهرهم « رستم » الذى خلف مذكرات عن نابليون كتبها أو كتبت على لسانه : ومنهم « على » الذى توفى سنة ١٨٠٣ فاستبدل بفرنسى يسمى «سان دنى» الذى ارتدى ثياب على المزركشة وصار من « مماليك » بونابارت ، وكتب هو أيضاً مذكرات عن سيده :

وهناك أيضاً بعض الجنود الذين رافقوا الحملة الفرنسية عند ما جلت قواتها عن مصر : وقد انزلهم الفرنسيون فى مرسيليا وتفرقوا فى شتى انحاء فرنسا :

ومهما يكن من أمر هؤلاء واولئك فان احداً منهم لم تشتهر رحلته إلى باريس ، ولم تخلف من الاثار ، ولم تعد بالفائدة ، مثل رحلة رفاعة رافع الطهطاوى : لذلك نستطيع أن نقول مجازاً انه أول مصرى زار باريس .

غادر رفاعة رافع الطهطاوى وصحبه القاهرة عصر يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة ١٢٤١ هجرية وانحدروا فى النيل الى الاسكندرية فكانت أول مدينة شاهدوا فيها بعض الشبه بالمدن الاوربية . وقد دون رفاعه بنفسه هذه الملاحظة فقال انه كان وقتئذ لم ير « شيئاً من بلاد الافرنج أصلا » وإنما فهمه مما رآه «فيها (أى الاسكندرية) دون غيرها من بلاد مصر من كثرة الافرنج وكون اغلب السوقة يتكلم بعض شيء من اللغة الطليانية ونحو ذلك » ثم تحقق مما قاله

عند وصوله إلى مرسيليا « فان الاسكندرية عينة من مرسيليا وانموذجها » .

ولعل من الخير ان نعنى بالناحية الموضوعية من رحلة رفاعة قبل العناية بالناحية الثانوية .

وغنى عن البيان أن نقول أن جميع ما استشهدنا به من اقواله وما سنورده فيما يلى مأخوذ عن كتابة « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » .

∽ ∽ ∽

كان الكثير وفى مقدمتهم الشيخ حسن العطار قد رغبوا الى الشيخ رفاعة أن « ينبه على مايقع لهفى هذه السفرة ، وعلى مايراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة » وأن يقيده ليكون نافعاً فى كشف القناع عن محيا هذهالبقاع التى يقال فيها أنها عرائس الافطار ٠٠٠ »

وقد فعل ما طلب اليه وهو يعلم « انه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربيـة على حسب ظنه شىء فى تاريخ باريس ، كرسى الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأهلها » ، وهو بعد ذلك « يشهد الله سبحانه وتعالى على أن لايحود فى جميع ما يقوله عن طريق الحق ، وان يفشى ماسمح به خاطـره من الحكم على استحسان بعض أمور هـذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال » ويشير الى انه « من المعـلوم أنه لايستحسن إلا مالم يخالف نص الشريعة المحمدية » ويذكر أن قصده من تدوين اخبار هذه الرحلة أن لاتقتصر على ذكر السفر ووقائعهفقط ، بل تشتمل ايضاً على ثمرته وغرضه ، وعلى انجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها عن طريق تدوين الافرنج لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها ، ولذلك نسب فى غالب الأوقات الأشياء التى هى محل للنظر أو للاختلاف الى أن قصده مجرد حكايتها ، وقد حاول فى تأليف هـــذا الكتاب سلوكه

طريق الايجاز ، وارتكاب السهولة فى التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود فى حياضه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر جسمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد ، ولا يستقصى من جزائل الخرائد » .

روى إذن رفاعة رافع الطهطاوى ان أفراد البعثة سافروا على سفينة حرب فرنسية الى مرسليا فقطعت بهم المسافة فى ثلاثة وثلاثين يوماً ، ووصلوا اليها فى شهر يوليو سنة ١٨٢٦ ، وفى مرسليا ابتدأ رفاعة يتعلم اللغة الفرنسية فاتقن التهجى فى نحو ثلاثين يوماً. ثم نقلوا الى باريس حيث انصرف الى الدرس والتحصيل فى جد واجتهاد فاتقن اللغة الفرنسية ثم اقبل على العلوم يطالع كتبها ويترجم عنها وكان رفاعة قد فهم أن خير ما يطلب منه أن يتعلم « فن الترجمة ، يعنى ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة ، خصوصاً ترجمة الكتب العلمية ، فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها » .

لذلك أقبل رفاعة على مطالعة الكتب ، وقد ذكر ثبتا للكتب التى قرأها ، وثبتا اخر للكتب التى ترجمها ، وروى لنا تفوقه فى الامتحانات التى تجرى فى كل سنة والجوائز التى كان يفوز بها والشهادات التى كانت تأتيه من العلماء الذين يشرفون على تعليمه وامتحانه .

هذا جومار المشرف على البعثة يشهد له بانه امتاز على جميع اقرانه ، وانه رجل متعلم فلا بد من أن ينجح فى ترجمة الكتب التاريخية وسائر التآليف الأخرى .

وهذا استاذه « شواليسه » يشهد له بالاكثار من الدرس والتحصيل حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف ، وأنه يشترى الكتب من مرتبه ، ويدفع منه كذلك أجر معلم اضافى ، ويقول أنه فى دراسته عليه أنه لم ير فيه الا أسباب

الرضا سواء فيما يتعلق بتعليمه أو سلوكه المملوء بالحكمة والاحتراس ، وحسن أخلاقه ولين عريكته .

وفاز رفاعة بشهادة غير اساتذته من أهل الفضل من أمثال المستشرقين « سيلفستر دى ساسى » و « كوسان دى برسفال » :

وتوفر رفاعة رافع الطهطاوى على الدرس والمطالعة والترجمة فنقل الى العربية فى عهد اقامته بباريس أثنى عشر كتابا وشذرة « يعنى أثنى عشر مترجماً ، بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات قصيرة » . وكان يتعلم اللغه الفرنسية والتاريخ والحساب والهندسة والجغرافيا ، ويطالع فى علم المنطق والمعادن ويقرأ كثيراً من الادب والتفكير . وقد دلنا على هذه الكتب فقال « وقرأت كثيراً من كتب الادب . فمنها مجموع « نويل » ، ومنها عدة مواضع من ديوان « ولتير » ، وديوان « رسين » ، وديوان « روسو » خصوصاً مراسلاته الفارسية (وهى لمونتسكيو — كما ذكرنا من قبل — لا لروسو) التى يعرف بها الفرق بين اداب الافرنج والعجم ... وقرأت وحدى مراسلات انجليزية صنفها القونت شسترفيلد لتربية ولده وتعليمه ، وكثيرا من المقامات الفرنساوية ، وبالجملة فقد اطلعت فى اداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة ، وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب « برلماكى » وترجمته وفهمته فيها جميعا .. . وقرأت أيضاً مع مسيو « شواليه » جزئين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له « مونتسكيو » ، وهو اشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ... ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضاً « منتسكيو » الشرق ، أى « منتسكيو » الاسلام . وقرأت أيضاً فى هذا المعنى كتابا يسمى « عقد التانس والاجتماع الانسانى » (هو كتاب العقد الاجتماعى) ، مؤلفه يقال له « روسو » وهو عظيم فى معناه ،

وقرأت في الفلسفة تاريخ الفلاسفة المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة فى « معجم الفلسفة » للخواجه« ولبتر » (كذا وهو « فو لتير ») وعدة محال فى كتب فلسفة « قندلياق » . وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو « شواليه » وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى « عمليات كبار الضباط » مع مسيو « شواليه » ماية صفحة وترأجمعتها » وقرأت كثيراً فى كازيطات العاوم اليومية والشهرية » وفى كازيطات السياسيات اليومية التى تذكر كل يوم مايصل خبره من الاخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتيقة » ؛ وكنت متولعا بها غاية التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية » وربما كنت اترجم منها مسائل علمية وسياسية خصوصاً وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية » .

نجد مما تقدم كيف كانت ثقافة رفاعة رافع الطهطاوى شاملة واسعة متنوعة ، واطلت فى نقل الكتب التى طالعها لانها تدل على أهليته لمختلف المناصب التى تولاها عند عودته الى مصر . وقد نقل وهو بباريس كتاب اخلاق الأمم وعوائدهم لمؤلفه « ديبنغ » ثم طبعه بعد عودته الى مصر .

وهكذا كان الشيخ رفاعه يقضى ايامه فى باريس مكبا على الدرس والتحصيل والترجمة فلا غرو اذا أدى امتحاناته فى تفوق ونال اعجاب ممتحنيه .

وهو يفسر مغزى هذه الامتحانات بان « من عادة الفرنساوية أن لايكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم والاجتهاد أو بمدح المعلم فى المتعلم ، بل لا بد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين فى امتحان قوة الانسان والفرق بينه وبين امثاله . وهذا يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص بدعوة مثل دعوة الولائم عادة » .

وكان أول امتحان أداه الشيخ رفاعة سنة ١٨٢٧ فاستحق عليه « هدية اللغة الفرنساوية » وهى كتاب « الانيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور » لمؤلفه المستشرق سيلفستر دي ساسي .

أما الامتحان الاخير الذى قفل بعده عائداً الى مصر فقد كان فيه شىء من الغرابة . كان « جومار » قد « جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الاستحان ، وكان القصد منه معرفة قوته فى فن الترجمة الذى انصرف الى دراسته واتقانه مدة اقامته فى فرانسا » وقد كتب لهذا الامتحان محضر نشر فى « وقائع العلوم » هذا نصه :

« التلميذ رفاعة ، انه قرأ فى المجلس دفترين : الدفتر الأول يشتمل على تعديد اثنى عشر ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى العربية ترجمها المذكور من منذ سنة . . . الدفتر الثانى يشمل على رحلته وذكر سفره . ثم احضر له عدة تآليف مطبوعة فى بولاق فترجم مواضيع بسرعة ، ثم قرأ بالفرنساوى مواضيع منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير فى كازيطة مصر المطبوعة فى بولاق (لعلها « الوقائع المصرية ») ، ثم بحث معه فى ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنساوى والشيخ بيده الترجمة ، ثم انه يترجم العربية بسرعة إلى الفرنساوى قراءة لاكتابة ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الاصل . وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقهـا من غير تغير فى معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما احوجه اصطلاح اللغةالعربية أن يضع مجازاً بدل مجاز من غير خالل فى المعنى المراد . . . وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وانه ربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة . ولكن من غير أن يقع فى الخلط بل هو دائما محافظ على روح المعنى الاصلى . وقد عرف الشيخ رفاعةالآن انه اذا أراد أن يترجم كتب علوم فلا بد له أن يترك التقطيع وعليه أن يخترع عند الحاجة تعبيراً مناسبا للمقصود . وقد امتحن فى كتاب آخر هو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافية الطبيعية . وهذا الكتاب ترجمه هو الى العربية . ولما كان وقت ترجمة هـذا الكتاب لم يصل إلى درجته الآن فى

اللغة الفرنساوية كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث فيه قبله ، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع اطرافها ؛ وعلى كل فلم يغير فى المعنى شيئاً ، بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة : فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ومجمعين على انه يمكنه أن ينفع دولته بأن يترجم لها ... » (انظر كتاب تخليص الابريز صفحة ١٥٤ من الطبعة الأولى) .

وقد غادر الشيخ رفاعة باريس فى أواخر سنة ١٨٣١ عائداً إلى مصر ليأخذ قسطه فى خدمة وطنه بما حصل عليه من علوم واكتنز من معارف وتجارب ؛

◯ ◯ ◯

اذا تناولنا إقامة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بباريس من الناحية التاثرية وجدنا عجبا . ولكى نفهم الانطباعات التى خلقها فى نفسه والملاحظات التى دونها فى كتابه « تخليص الابريز ... » يجب أن نتخيل الحياة التى كان يعيشها رفاعه فى الربع الأول من القرن الماضى فى مدينته بالصعيد، وفى المحيط الازهرى، أو بين الجنود الذين عين اماما لفرقتهم ، والتقاله فجأة من هذا المحيط ذى التقاليد الراسخة والعادات البدائية فى المنامة والمأكل والمشرب وغير ذلك من وسائل المعيشة إلى محيط صقلته المدنية وبدلت التجارب فى وسائل الحياة وقلبت الاوضاع والتقاليد ؛

وقد كان رفاعة مخلصاً فى تدوين مشاهداته وتعليقه عليها ، فكان يبحث للعادات التى شاهدها ويحلل الأسباب التى دفعت اليها ، ويفرق بين النافع والضار منها بحيث لم ينسق فى غمرة الجديد الذى لقيه الى ادانته جملة ؛ أو الاعجاب به جملة ، بل فحص وتدبر بعقل ناضج وذهن متفتح وقلب فهم لايعميه التعصب ولا يستميله التغيير والتبديل ؛

وقد وصف رفاعه فى مقدمة كتابه طريقته فى اختيار ملاحظاته وتدوينها وتعليقه عليها فقال « نزهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتهـا عن زلل التكاسل والتفاضـل ، ورشحتها ببعض استطرادات نافعـة ، واستظهارات ساطعة وانطقتها البحث عن العلوم البرانية ، والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الافرنج امر ثابت شائع ... وقد اشهدت الله سبحانه وتعـالى على ألا احيد عن فى جميع ما اقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب مايقتضيه الحال ، ومن المعلوم أنى لا استحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية » .

وكان أول اتصال رفاعة بالافرنج على ظهر « سفينة حرب فرنسية » اقلت البعثة من الاسكندرية إلى مرسيليا : وكان أول ما استحسنه « فى طباع الافرنج دون من عداهم من النصارى النظافة الظاهرية » . وهذه أول ملاحظة نجـدها فى الكتاب تجعلنا نعنى بأمثالها فيه . فهو يشير إلى المسائل الصحية اكثر من مرة ويرى أن داء البرص اندثر « من انتشار الاقمصة البيض التى تغسل ويغير بهـا كل اسبوع مرة أو عـدة مرات . فالملابس البيض من جملة ما انتج النظافة والسلامة من اثار الاوساخ الرديئة » .

ويعود إلى النظافة مرة أخرى فى حديثه عن المرأة الغربية بباريس فيرى انه « مما ينبغى أن يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الاوساخ ... وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهن وملابسهن أمر عجيب وبيوتهن مفرحة بسبب كثرة شبابيكهن الموضوعة بالهندسة وصفا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وضلفات الشبابيك دائماً من القـزاز ، حتى إذا اغلقت فان النور لا يحجب اصلا وفوقها دائماً ستائر ... »

وكانت قلة العناية بهذه الأمور البديهية فى الصحة العامة أصل بلاء كثير فى

مصر لذلك نجده شديد العناية بها : فهو يذكر الطب بباريس وتخصص الاطباء فى شتى الامراض وكثرة المستشفيات إلى غير ذلك .

وصلت البعثة إلى مارسيليا فاذا الشيخ رفاعة ينتقل بين عجائب وغرائب لا عهد له بها . فهذا لون من الحياة لم يألفه فى مصر لذلك نجده يمضى فى تدوين ملاحظاته بدقة وعناية ويصف ما يشاهده وصفاً صادقاً ، ويشير إلى ما يجده غريباً فى عهده فى حين نجده اليوم امراً عادياً، ونستشهد به للتدليل على طريقته فى الكتابة : قال :

« ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها . وذلك انهم احضروا لنا خدما فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها لأن أهل هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الارض فضلا عن الجلوس بالارض . ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من القزاز وسكينة وشوكة ومعلقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل . ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى لكل واحد كرسى ثم جاءوا بالطبيخ فوضعوا فى كل طبلية صحناً كبيراً او صحنين ليغرف أحد اهل الطبلية ويقسم على الجميع فيعطى لكل إنسان فى صحنه شيئاً يقطعه بالسكينة التى قدامه ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده : فلا يأكل الإنسان بيده اصلا ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه ابداً ويزعمون أن هذا انظف واسلم عاقبة » .

ثم وصف الوان الطعام كما قدمت بترتيبها من الماء إلى الفواكه . وأشار كذلك الى انه « لا بد أن ينام الإنسان على شىء مرتفع نحو سرير » .

طافت البعثة بمرسيليا ثم انتقلت إلى باريس : وكان على الشيخ رفاعة أن

يكد ذهنه فى ملاحظة كل ماحوله ملاحظة دقيقة ، وقد فعل باخلاص. وكان عليه أن يصف ما لاحظه فى دقة لا تقل عن هذه الملاحظة ، وهكذا كان .

ونجده يفهم نظرية فعل الخير الحديثة التى تقوم على الاحسان الجماعى بواسطة الجمعيات اكثر مما تقوم على الإحسان الفردى . كما نجده شديد الاعجاب بالنزاهة الفعلية ومتانة الاخلاق ، ويصف ارباب المهن والصيارفة وغيرهم ويصورهم تصويراً حسناً ، ويحاول أن يقابل بين الفرنسيين والعرب فيقول أن الفرنسيين « اقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الاجناس ، وأقوى مظنة للقرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ، ويسمون العرض شرفاً ، ويقسمون به عند المهمات ، واذاعا هدوا عليه وفوا بعهودهم » .

ونجده يشير الى شربهم الخمور مع الاكل « قدراً لا يسكر به ابداً فان السكر عندهم من العيوب والرذائل » الى أن يقول « ثم انهم مع شربهم من هذه الخمور فانهم لا يتغزلون بها كثيراً فى أشعارهم وليس لهم اسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلا، فهم يتلذذون باللذات والصفات ولا يتخيلون معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب محفوظة متعلقة بالسكارى ، وهى هزايات فى مدح الخمر لاتتدخل فى الادبيات الصحيحة فى شىء اصلا» .

ولم ينس الشيخ رفاعة النساء فقد خصهن بالكثير من حديثه . ولا غرو فقد كانت عادات الفرنسيات ولبسهن وطريقة معيشتهن حدثاً جديداً يتنافى تماماً مع حالة المصريات فى الريف ، وفى القاهرة ايضاً فى اوائل القرن الماضى. ولعل هذا ما جعله شديد العناية بهن وباحوالهن وبمركزهن فى المجتمع . فانه منذ وصل إلى مرسيليا لاحظ ثيابهن ... « وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته ، واليدين الى قرب المنكبين ، والعادة أن البيع بالإصالة للنساء واما الاشغال فهى للرجال » .

وفى أثناء سفره من مرسيليا الى باريس لاحظ ان « الظاهرة فى هذه القرى والبلاد الصغيرة ان جمال النساء وصفاء ابدانهن أعظم من ذلك فى مدينة باريس ، غير ان نساء الارياف اقل تزيناً من نساء باريس . »

وعندما وصل الى باريس شاهد رقى المرأة وتعلمها وتقدمها فى المجتمعات على الرجال ، واحترام هؤلاء لها وتمثل بقول بعضهم : « ان النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كامتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين » .

وقال : « ولايظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئاً أصلا مع ان هفواتهن كثيرة معهن ، فان الانسان منهم ، ولو من اعيانهم ، قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية وينفصل عنها مدة العمر ، فلا يعتبر الاخرون بذلك مع أنه ينبغى الاحتراس منهن ؟ »

وقال أيضا : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين الرجال فى تلك المحال سواء الاحرار أو غيرهن ... » غير أنه يرى أن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى عن كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتئام فى الزوجية » .

ورأى أن « قد جرب فى بلاد فرنسا أنه العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الاعيان والرعاع : فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيراً ويتهمون فى الغالب . »

ووصف ثياب الفرنسيات كما رآها وزينتهن ، وأشار الى ان من خصالهن التى لا يمكن للانسان أن يستحسنها عدم أرخائهن الشعور كعادة نساء العرب فان

لساء الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً أو نحوه .

ويطول بنا الكلام أن تابعناه فى كل ما لاحظ ومادون وما وصف ، وإنما نود أن نقدم نماذج لها من ذلك لنـدلل بها على تفتح ذهن رفاعة الشاب ودقة ملاحظته وقدرته على البيان . قال عن المقاهى :

« دور المقاهى عندهم ليست مجتمعا للخـــرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق إلا بالغنى التام وأثمان ما فيها غالية جداً فلا يدخلها إلا أهل الثروة وأما الفقراء فانهم يدخلون قهاوى فقيرة . وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب .

« والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة ، وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس النـــاس ومحل القهوة صبيان القهوة ؛ ومحل جلوس الناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمسجرات . ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود المنقوش . وفى هذه القهوة يباع سائر انواع الشراب أو الفطورات ، فاذا طلب الإنسان شيئاً طلب الصبيان من القهوجيـة وهى تقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبى للطالب حين يريد الدفع ... »

ويلاحظ أن جميع ما ذكره رفاعة عن المقاهى معروف عندنا اليوم ، ولكنه فى ذلك العهد كان جديداً فى نظره ، لامثيل له فى مصر .

وتناول رفاعه وصف المسارح كما شاهدها بباريس . وكان هذا الموضوع

جديداً لم يتداوله أحد قبله بالعربية ، وكان عليه أن يتصرف بالالفاظ للتعبير عما شاهده ، لذلك نلفت النظر إلى اللغة التي استخدمها في الوصف ، مماسنعود اليه فيما بعد . قال :

« فمن مجالس اللهو عندهم محال تسمى التياتر ، والسبكتاكل ، وهي يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ؛ وفي الحقيقة أن هذه الالعاب هي جد في صورة الهزل فان الإنسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ومدح الأولى وذم الثانية حتى أن الفرنساوية يقولون أنها تؤدب اخلاق الإنسان وتهذبها ... »

ويستمر رفاعة في وصف المسارح ونظامها فيقول :

« وصورة هذه التياترات انها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة وفيها عدة أدوار لكل دور له أرض موضوعة حول القبة من داخله وفي جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الأرض بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو في داخل البيت : وهو منور بالنجفات العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل الالاتية. وذلك المقعد متصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الأشياء التي تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدة للعب. ثم أنهم يضعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة فاذا ارادوا تقليد سلطان مثلا في سائر ما وقع منه وضعوا ذلك على المقعد على شكل سراية ، وصوروا ذاته ، وانشدوا أشعاره ، وهلم جرا : ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ثم يرفعونها ويبتدؤون اللعب ... »

ويتحدث رفاعة عن النساء اللاعبات والرجال فيشبههم بالعوالم في مصر ثم يقول . « واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة.

وربما كان لهؤلاء كثير من التآليف الادبيـة والاشعار. ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الاشعار وما يبديه من التوريات في اللعب ،وما يجاوب من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب ...»

ويلخص رفاعة وظيفة المسرح عندهم فيقول: «وبالجملة فالتياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل» .

ويتحدث عن الاوبرات فيذكر أن «اعظم السبكتاكل في مدينة باريس المسماة الاوبرا ... وفيها اعظم الالاتية وأهل الرقص . وفيها الغناء على الآلات ، والرقص باشارات كاشارات الاخرس تدل على أمور عجيبة : ومنها تياترو تسمى اوبرا كوميك ، فيغنى فيها الاشعار المفرحة . وبها تياترو تسمى التياترو الطليانية وبها اعظم الآلاتية وفيها تنشد الاشعار المنظومة باللغة الطليانية . وهذه كلها من السبكتاكلات الكبيرة . وفي باريس سبكتاكلات صغرى ...»

وكان حريا برفاعة أن يهتم بالصحافه — وسماها التذاكر اليوميـة — وهو يعرف الصحف بأنها «ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصـل اليهم علمه في ذلك اليوم ، وتنشر في المدينة وتباع لسائر الناس وسائر اكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى ... فهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحاً ، وأن تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك ، فانه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى ...»

ويصف رفاعة انواع الصحف وأصنافها وانتشارها ويعرّف بما لها من فائدة ويعدد فوائدها . ولكنه يأخذ عليها كذبها فيقول ، «لايوجـد في الدنيا

أكذب من الجرنالات أبداً خصوصاً عند الفرنسيين ».

وعلى هذه الطريقة سار رفاعة فى وصف مشاهداته واختباراته وانطباعاته فى باريس ، وقد أشرنا إلى قليل من كثير . ولا نستطيع متابعته فى كل ما كتب ونكتفى بالاشارة الى وصفه لارباب المهن وطرق الكسب والصيارفة والشركات والمخازن الكبيرة كما وصف نظام الحكم وترجم الى العربية الدستور الذى كان قائماً ايامئذ ، وارخ للثورة التى شبت سنة ١٨٣٠ ، وكان قد شهد حوادثها ، وماتلا الثورة من سقوط ملك وقيام ملك اخر وتغيير فى نظام الحكم .

وكان هذا جميعه حريا بان ينال اعجاب الفرنسيين الذين اطلعوا على الكتاب بباريس ومنهم المستشرقان سيلفستر دى ساسى وكوســان دى برسفال . وقد اطريا الكتاب والمؤلف فى رسالتين نشرتا فيه . وكان فى تقريظ دى ساسى شىء من التحفظ .

○ ○ ○

كان على رفاعة أن يعبر عن الانطباعات التى انطبعت بها نفسه والمرئيات التى اكتنزها عقله وخياله بلغة عربية صرفة . ولكنه كثر لديه الجديد من المناظر والعادات والنظم فاضطر الى مداورة الصعوبات بشتى الوسائل . وكان أول ما عرض اسلوب كتابة الكتاب وكيف يجب أن يكون فقرر بينه وبين نفسه « سلوك طريق الايجاز وارتكاب السهولة فى التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه » ، وهو لذلك نجده لا يتقيد فى بعض الاحيان بقواعد الفصحى ، فيستعمل بعض الالفاظ العامية والاجنبية ، لأن همه انصرف الى تقديم صورة صادقة لمشاهداته ووصف جلى واضح مفهوم لانطباعاته .

ولعل هذا الاسلوب السهل الذى توخاه جعله يفكر فى مسألة اللغة ويوازن بين العربية والفرنسية فيقول : « ومن جملة مايعين الفرنساوية على التقدم فى

العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر مايكملها فان لغتهم لاتحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها ، فاى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها ان يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها اصلا فهى غير متشابهة . واذا اراد المعلم أن يدرس كتابا لايجب عليه أن يحل الفاظه ابداً فان الالفاظ مبينة بنفسها. وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق الفاظه على قواعد أخرى برالية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من الغلوم يحتاج ان يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الالفاظ ما أمكن ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها . واما كتب الفرنسيين فلاشىء من ذلك فيها . فليس لكتبها شراح ولا حواش الا نادراً ، وانما قد يذكرون بعض تكميلات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى افهام مدلولها . فاذا اشرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الالفاظ فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن انتاجه منها . واما غير ذلك فهو ضياع ، مثلا اذا أراد الانسان أن يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الاعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بان العبارات كانت قابلة التجنيس وقد خلت عنه ، وان المصنف قدم كذا ولو أخره كان أولى ؛ وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ونحو ذلك ...»

وبعد أن تغلب رفاعة على مشكلة اللغة بتبسيط الاسلوب حتى أنه لم يتقيد أحياناً بسلامته ، عرضت له مشكلة أخرى وهى ايجاد اسماء عربية للظواهر الجديدة التى شاهدها . وقد عرض له أن شرح وجهة نظره فى التغلب على هذه الصعوبة فقال فى حديثه عن المسارح : « لا أعرف اسما عربيا يليق . بمعنى السبكتاكل أو التياتر . غير أن لفظ سبكتاكل معناه منظر أو منتزه أو نحو ذلك. ولفظ تياتر معناه الاصلى كذلك ، ثم سمى اللعب ومحله . ويقرب أن يكون

نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ؛ بل الخيالى نوع منها . وتشتهر عند الترك باسم « كمدية » وهذا الاسم قاصر الا أن يتوسع فيه . ولامانع أن تترجم لفظة تياترو أو سبكتاكل بلفظ « خيالى » ويتوسع فى معنى هذه الكلمة . ويقرب من تصوير السبكتاكل أو هو منها مواضع يصور فيها للانسان منظر بلد أو أرض أو نحو ذلك . فمن ذلك « بانورمه » : وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها . ففى صورة مصر ترى كانك على منارة السطان حسن مثلا ، والرميلة تحتك وباقى المدينة » .

ومن هذا النص نقدر الجهد الذى بذله رفاعة فى ايجاد الالفاظ . للمرئيات الجديدة والظواهر التى لم يعرفها العرب وليست لها اسماء فى اللغة العربية فكانه كان يقوم بمفرده بالعمل الذى يقوم به المجمع اللغوى باكمله : وهكذا نجده يسمى المائدة « طبليات عالية » والمرفأ « الموردة » والمسرح «المقعد» والصحف « التذاكر اليومية » أو « أوراق الوقائع اليومية » والمتحف «خزانة المستغربات».

على أنه كان إذا أعوزه اللفظ العربى استعمل اللفظ الفرنسى ، وكان فى بعض الاحيان يعود الى استعمال اللفظ الفرنسى بالرغم من استنباط العبارة العربية وهكذا نجده يقول « التياتر » و « سبكتاكل » للمسارح و « كازيطات » و « جرنالات » للصحف ، وربما استعمل لها الجمع الفرنسى فيقول « جورنو » و « البال » للمرقص و « الكورنتينه » للحجر الصحى ، ونحت من هذا اللفظ فعلا فقال « على عادتهم من اتى من البلاد العربية لا بد ان يكرتن ... » واستعمل كذلك لفظ « مونركى » للنسبة الى الملك « وفياكر » للعربية وغير ذلك.

غادر اذن رفاعة رافع الطهطاوى باريس فى أواخر سنة ١٨٣١ وعاد إلى مصر حيث أخذ ينفع بعلمه ويشترك فى الحياة العلمية فيها ويؤدى واجبه نحو امته ووطنه على احسن وجه .

وقد عين فى أول الأمر مترجما فى مدرسة الطب التى كانت قد انشئت فى ابى زعبل برياسة كلوت بك وكان التدريس يجرى باللغة الفرنسية فى حين أن الطلبة لا يفهمون هذه اللغة . وكانت الدروس تنقل إليهم بواسطة مترجمين . وكانت قد انشئت إلى جانب مدرسة الطب مدرسة لتعليم اللغــة الفرنسية فعهد إلى رفاعة بالتدريس فيها . ثم نقل سنة ١٧٣٣ إلى مدرسة المدفعية بطره وعهـد اليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية وفى سنة ١٨٣٥ طلب رفاعة اعفاءه من العمل فى هذه المدرسة فأجيب طلبه وعين ناظراً لمكتبة المدرسة التجهيزية بالقصر العينى .

وكان رفاعة أثناء عمله فى الوظائف التى ذكرناها يعكف على ترجمة العديد من الكتب الفرنسية سواء فى الطب أو الجغرافيا واعادة النظر فى ماترجمه أثناء اقامته بباريس وخاصة كتاب « قلائد المفاخر فى عوائد الاوائل والاواخر » ، وهو كتاب « اخلاق الأمم وعوائدهم » وكان مؤلفه « دبنغ (١) » قد وضعه خصيصاً له ، على ما ذكره رفاعة فى كتاب « تخليص الابريز » وقد كتب له رفاعة مقدمة بعنوان «سابقة» ضمنها شرح الالفاظ التى استعملها باصلها الفرنسى وقد دل فيها على عنايته بالترجمة وحاجة اللغة العربية إلى المصطلحـات العلمية

---

(1) Depping : Mœurs et Usages des Nations ,

ودعا الكتاب الى الاقتداء به فقال فى « السابقة » : « هى الكلمات الغريبة التى توجد فى كتاب «قلائد المفاخر فى عوائد الاوائل والاواخر» مرتبة على حروف المعجم ، ومضبوطة حسب الامكان وفسرة على الوجه الاتم سواء كانت اسماء بلدان أو أشخاص » : إلى أن قال « عربناها باسهل ما يمكن للتلفظ به فيها على وجه التقريب حتى انه يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة على لغتنا كغيرها من الالفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية . . . »

وكانت الحاجة إلى مترجمين والى دراسة اللغات الأجنبية تظهر كلما اخذت مصر تتقدم فى معارج العلم والتعليم . ولسد هذا الفراغ تأسست سنة ١٨٣٥ مدرسة الالسن ، وقد وصفها رفاعة بأنها كانت « لمعرفة اللغـات واستفادة ترجمة الكتب الأجنبية ونتج عنها تكثير المعلومات واحرزت ديار مصر منهـا الفوائد الجمة والمعـارف المهمة » . وقال قدرى باشا « انشئت مدرسة الالسن لتعليم اللغات الأوربية ولا حياء الأدب العربى والشعر العربى وقد كانا شبه مبين » .

ولم يكن فى مصر من هو أجدر من رفاعة رافع الطهطاوى لتـ ولى رياسة هذه المدرسة والإشراف على التعليم فيها ، وقد عين فعلا ناظراً لها ، وظل اسمه عالقا بهـا يذكر كلما ذكرت هذه المدرسة . وقد بذل أثناء توليه هذه الرياسة جهداً كبيراً ودل على أن مهارته فى الإدارة لا تقل عن تفوقه فى العلم والترجمة . وقد اثمرت جهوده هذه بدليل أن قدرى باشا يقـول فى مقدمة كتابه « الدرس النفيس فى لغة الفرنسيس» التى كتبها باللغة الفرنسية ما مؤداه : لقد ترجم خريجو مدرسة الالسن تحت اشراف رفاعة بك اكثر من الفى كتاب فى شتى الموضوعات الى التركية والى العربية ، وكان جل هؤلاء المترجمين ممن درسوا الحقـوق أو الاقتصاد السياسى فساعدوا بانفسهم وبالكتب العلمية والحربيـة التى ترجموها

على نشر المدنية والرقى بين سكان البلاد كما انتفعت بهم الحكومة فى المناصب الإدارية العالية التى تولوها ، وفى وظائف الترجمة . وكان منهم من انقطع للتعليم . وهكذا تعلم الاف من سكان البلاد بفضل جهودهم الفرنسية أو الانجليزية أو الإيطالية .

كانت مدرسة الالسن اذن ركنا من اركان النهضة التعليمية فى مصر . انشئت أولا لتعليم الترجمة واللغات ، وكان مقرها « دار الالفى » بالازبكية . فابتدأت بخمسين طالبا كانوا يجمعون لها من مدارس الارياف الاميرية ، ثم ازداد عدد طلابها واتسع نطاق التدريس فيها فشمل الفقه والإدارة والأحكام الافرنجية والمحاسبة .

وتفرع عن مدرسة الالسن ما اسموه بقلم الترجمة . ذلك أنه رؤى الانتفاع بطلبة هذه المدرسة بتكليفهم بنقل الكتب الى العربية على أن يتولى اساتذة مختصون الاشراف على ما ترجموا من كتب . وقد انشىء هذا القلم سنة ١٨٤١ تحت إدارة رفاعه رافع الطهطاوى بصفته مديراً لمدرسة الالسن ، وكان يتولى بنفسه النظر فى الكتب المطلوب ترجمتها أو اختيار الكتب النافعة ثم يوزعها على المترجمين لنقلها الى العربية .

ولما اعيد تنظيم قلم الترجمة سنة ١٨٤٨ وأصبح يتألف من قسمين احدهما للترجمة الى العربية والآخر الى التركية جعل القسم العربى تحت اشراف رفاعة واسند القسم التركى الى غيره .

ولا شك انه فى تلك الحقبة من الزمان — أى بين ١٨٣٥ و ١٨٥٠ — اسندت الى رفاعة الطهطاوى مهام كثيرة ووظائف عديدة ، كان من بينها تحرير « الوقائع المصرية » مما سنعود الى ذكره فيما بعد . وقد ذكر السيد بك صالح مجدى انه وجد ورقة مختومة بختم رفاعة تدل على انه كان يتولى فى ذلك

العهـد نظارة مدرسة الالسن ، ونظارة « الوقائع المصرية » ، ونظارة المدرسة التجهيزية ، والكتبخانة الافرنجية ، ومخزن عموم المدارس ، وقلم الترجمة .

وترى من هذه القائمة الأعمال الشاقة التى كان يقوم بها ، والنواحى المتعددة التى كان يبذل فيها جهوده وهـذه مدرسة الالسن وحدها كانت جديرة بأن تستنفد جهود عدد من الرجال ، وكانت كما رأيت مجموعة مدارس لا مدرسة واحدة .

وقد اشار رفاعة الى جميع هذا فى المقدمة التى كتبها — وهو فى السودان — لترجمة قصة « تلماك » قال :

« قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية . وظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة ، وسنين عديدة ، نظارة وتعليما وتعديلا وتقويما ، وترتيبا وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفننين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم ابهر بديهة وابهى روية وازهى ارتجال ، وحماة صفوف لايبارون فى نضال ولاسجال ، عربت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة ، من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها ، وسارت بها الركبان فى سائر البلدان ، وحدا بها الحادى فى كل وادى ، وقصدها القصاد كأنها قصائد حسان ، وكان زمنى الى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ... وفى مدة نحو الثلاثين سنة لم يحصل لهمتى فتور ولا قصور » .

هكذا يلخص رفاعة رافع الطهطاوى اعماله فى ذلك العهـد . وقد نجد فى اسلوبه بعض التفاخر لأن مصر كانت قد امتحنت بحكم عباس الأول فاغلقت المدارس واقفرت معاهد العلم واقصى رفاعة الى السودان .

احتار المؤرخون فى الأسباب التى اثارت غضب عباس الاول على رفاعة رافع الطهطاوى وانتدابه لتأسيس مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، وهـذا التعيين يعتبر بمثابة نفى له . فقد ذكر الاستاذ عبد الرحمن الرافعى أن اعادة طبع كتاب « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » فى أوائل عهد عباس كان السبب فى ابعاده الى الخرطوم ، لان هـذا الكتاب يتضمن أفكارا تحررية جديدة لا تتمشى مع طبيعة عباس المستبدة . ولا شك فى أنه وجد بين رجال البطانة من لفت نظره اليها فرأى « أن ينفى رفاعة وأمثال رفاعة الى السودان ليبعدهم ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر . واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهى انشاءمدرسةبالخرطوم». وقال أحمد عزت عبد الكريم أن بعض الباحثين يرون فى ذلك أصبع على مبارك، الذى كان ينفس على رفاعة ما أصاب من مكانة، أو أن رفاعة لقى معارضة من بعض المشايخ المتعصبين « الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه » فأوغروا صدر عباس عليه . أما أحمـد أمين فيرى أن الاسرة الحاكمة كانت منشقة على نفسها ، وأن الولاة كانوا يغضبون على من كان حائزا لرضى سلفهم . فعباس يغضب على رفاعة الطهطاوى لانه كان مقرباً من محمد على وابراهيم ، وسعيد يقرب رفاعة ويغضب على على مبارك ويبعده الى القرم لانه كان مقرباً من عباس . أما رفاعة نفسه فقد أشار اشارة خفية الى سر ذلك فى كتابه « مناهج الألباب المصرية » فقال : « وفى سنة ١٢٦٧ كنت سافرت الى السودان بسعى بعض الامراء ، بضمير مستتر ، بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل ... »

وهكذا كان رفاعه يعلم أن انتدابه للسفر الى الخرطوم بمثابة نفى له ، وأن

انشاء مدرسة ابتدائية لا تتطلب موظفاً فى مكانته الادارية والعلمية والأدبية ؛ ولكنه صدع بالامر واختار الاساتذة وسافر معهم ، وانشأ المدرسة وجمع التلاميذ لها ولكن أغلب التلامذة الذين جمعوا للمدرسة هربوا بمعرفة أهاليهم ، وتوفى ثلاثة من الاساتذة الى رحمة ربهم ، واستولى حكمدار السودان على مهمات المدرسة « كالطرابيش وغيرها » ووزعها على فرق الجيش . وهكذا أصبحت المدرسة « كما وصفها رفاعة نفسه « اسما بدون جسم » بعد مرور عامين على تأسيسها .

واهتم عباس بذلك عندما بلغه الأمر وكتب الى حكمدار السودان يأمره بأن يعاون رفاعة فى أداء مهمته . وهكذا انتظمت المدرسة بعد ذلك وبلغ عدد تلاميذها نحو الاربعين وكان جلهم من أبناء المصريين القاطنين فى السودان ؛

ولكن عباسا مات فجأة فى يوليو سنة ١٨٥٤ ، ولم يكد يتولى سعيد الحكم حتى أصدر أمره باغلاق مدرسة الخرطوم وعودة رفاعة الطهطاوى الى مصر ،

***

كان رفاعة الطهطاوى يقيم اذن فى الخرطوم على مضض بعيداً عن وطنه وأهله وأسرته ، فأخذ يشغل نفسه بما يفيد الأدب واللغة وترجم كتاب «مغامرات تليماك » تأليف « فنيلون » (١) . وكان قساً فرنسيا ثم أصبح رئيس أساقفة مدينة « كمبريه » وكان أديباً كبيراً . وقد وكل اليه لويس الرابع عشر تربية حفيده « الدوق دى بورجونى » . وكان « فنيلون » رقيق الحاشية لين العريكة يكره وسائل لويس الرابع عشر فى الحكم استبداده فالف كتاب «مغامرات تليماك » ، وهو

---

(1) Fénélon : Les Aventures de Télémaque .

قصة ابن « أوليس » أحد ابطال طروادة ، وكان أوليس قد شرق وغرب بعد هذه الحرب فسافر ابنه « تلياك » للبحث عنه بارشاد « منرفا » الهة الحكمةوالفنون التي تنكرت في شكل أستاذه ومؤدبه « منتور » . وقد جاب الاثنان بعض البلدان ورأوا الحكم فيها ، وكان منتور يبصر تلياك في مختلف ما يراه . . . وهكذا استطاع أن يشرح فنيلون أراءه في الحكم والادارة والترف والفنون والزراعة وأن ينصح بالعودة الى حياة البساطة والتقشف . لذلك يرى الناقدون في هذا الكتاب صورة للحياة في فرنسا في القرن السابع عشر وأنه لكي يفهمه القارىء يجب أن يعرف وسائل لويس الرابع عشر في الحكم وحياة الترف التي كان يعيشها .

ومن يدرى ؟ لعل رفاعة الطهطاوى اختار هذا الكتاب لترجمته الى العربية ليعرف باستبداد عباس ، وحياة الترف التي كان يعيشها ولاةمصر أيامئذ .

وعلى كل فكتاب تلياك مستمد من « الاوذيسة » لهوميروس ، وهو يمت للميثولوجيا اليونانية بأكثر من سبب . وكان رفاعه شغوفا بهذه الميثولوجيا التي ذكر في كتاب « تخليص الابريز » أنه ترجم نبذة فيها عند ما كان في باريس. ثم لما عاد الىوتولى نظارة مدرسة الالسن أوحى الى تلاميذه ترجمة كتاب(بداية القدماء وهداية الحكماء) ووضع مقدمة للكتاب الذى تضمن تاريخ اليونان وخرافاتها وحروبها وآدابها وعلومها وفلسفتها كما تتناول الخرافات اليونانية بالتفصيل في خمسين صفحة .

وهكذا نجد رفاعة يقوم بمحاولة جريئة — يصفها الاستاذ محمد خلف الله احمد —بأنها الأولى من نوعها — لنقل الادب الاسطورى اليونانى الىاللغةالعربية. فيفتح بها عهدا جديداً للفكر العربى من حيث اتصاله بالاداب اليونانية بعد أن

عجز عن ذلك مترجمو العصر العباسى ؛

وقد وصف رفاعه أسلوبه فى الترجمة بأنه التزم فيــه (أسهل تقريب واجزل تعبــير متحاشيا ما يورث المعنى أدنى تغيير ، أو يؤثر فى فهم المقصود أقل تأثير) . وقـــــد أصاب رفاعة الحقيقة فيما ذهب اليه لو لا أنه التزم السجع فى أغلب الأحيان مما أدى الى تبسط فى العبارات وزيادة فى الصور الاستعارات .

عاد رفاعة الطهطاوى الى مصر ولكنه لم يجـــد وظيفة له . فأخذ يهتم بنشر التعليم الشعبي وانشاء المكاتب الأهلية ويدعو الى ذلك دون أن يجد أذنا صاغية من سعيد بالرغم من قصائد المدح التى كان يرفعها اليه بعد تجليدها تجليداً فخما. وأخيراً عين عضواً ومترجما بمجلس المحافظة ، ولكنه لم يخلق لمثل هذه الوظائف الكتابية ، وعندما اتجـه الرأى الى انشاء مدرسة حربية تجمع بين دراسة الفنون العسكرية واللغات والأدبيات والرياضة على أن تضم هذه المدرسة طلبة المدارس القليلة التى كانت باقية من عهد عباس— وقد انشئت هذه المدرسة فى يوليو سنة ١٨٥٦ وكان مقرها بالقلعة — عهدت نظارتها لرفاعة الطهطاوى فنهض بالأمر على خير وجه وشاء أن يسير بها على نمط مدرسة الالسن فجمع حوله طائفة من طلابه القدامى ومريديه ؛

وكان رفاعة بحكم نظارته على المدرسة الحربيـة بالقلعة اتصال دائم بالمدرسة الحربية التى كانت بالاسكندرية ، وكثيراً ما كان رفاعة يزورها لبحث حالها وامتحان طلبتها ، ويقول أحمد عزت عبد الكريم أنه كان لهذا الاشراف غير المباشر على المدرسة الحربيـة بالاسكندرية أثره فى التقريب بين مستوى الدراسة فى المدرستين ،

ولكنه لامر ما ألغيت مدرسة القلعة فى أغسطس سنة ١٨٦١ ؛

ويجب أن نشير هنا إلى ماذكره على مبارك عن عناية رفاعه الطهطـــاوى فى عهد سعيد بنشر الكتب القديمة وللانتفاع بها فى الأزهـــر وغـــيره ، ومن الكتب التى طبعت وقتئذ تفسير الفخر الرازى وخزانة الادب ومقامـــات

الحريرى ومقدمة ابن خلدون وكان رفاعه بذلك فى طليعة الذين اسهموا فى نشر التراث القديم .

توفى سعيد سنة ١٨٦٣ وقام بالولاية على مصر من بعده اسماعيل فاعاد قلم الترجمة وجعل على رأسه رفاعه الطهطاوى . وكان من أعمال هذا القلم نقله الى العربية القانون المدنى الفرنسى الذى طبع سنة ١٨٦٦ . وقد توفر لهذه الترجمة رفاعة وساعده فيها بعض أعوانه وتلاميذه من موظفى قلم الترجمة .

وعين اسماعيل رفاعه عضواً فى قومسيون المدارس . وكان على رأس ادارة المدارس أيامئذ على مبارك فكلف رفاعه تأليف كتاب مدرسى يتضمن قواعد اللغة على النمط الحديث فوضع كتابه « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » سنة ١٨٦٨ ، وجعله — على حد قوله — « على اسلوب جديد يقرب البعيد للمستفيد » . وقد وصف محمد الصادق حسين هذا الكتاب بقوله : « ولا أظن أن مدارسنا حظيت فى هذا العلم بخير من تلك الرسالة ... »

وعندما انشأ على مبارك مجلة « روضة المدارس » عهد بالإشراف على تحريرها الى رفاعه الطهطاوى .

لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يتولى فيها رفاعه الطهطاوى تحرير الصحف وقد ذكرنا عند الحديث عن كتابة « تخليص الأبريز الى تلخيص باريس » اعجابه بالصحافة واقباله على مطالعة الصحف وتبرمه من كذبها . ثم نجد بعد عودته الى مصر باعوام ، وعندما اتجه التفكير الى ادخال تحسينات على جريدة « الوقائع المصرية » فى أوائل سنة ١٨٤٢ وصدر بذلك قرار من ديوان المدارس الذى كانت الصحيفة تابعة له أن عين « حضرة الشيخ رفاعه افندى ناظر مدرسة الألسن » مشرفا عليها يعنى بترجمة المواد المناسبة من الصحف الأجنبية واختيار

قطع أدبية ، وترتيب « الوقائع » بصفة عامة » :

وكان العدد الأول من الوقائع المصرية قد صدر فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، وكانت تحرر باللغتين العربية والتركية ، وكانت الصدارة فيها للتركية ، كما كانت الصحفية تحرر أولا بالتركية ثم تترجم الى العربية. ولكن رفاعة لم يكد يتولى رئاسة تحرير الصحيفة حتى قلب هذا النظام فجعل للنص العربى الى اليمين والتركى الى اليسار بحيث اعطى الاولوية للغة العربية وطالب بان تقدم المواد كلها بالعربية وتدبج الفصول بهذه اللغة ثم ينقل منها ماينقل الى التركية . ثم صرف عنايتـه للاخبار فجعل يختار الهام النافع منها وادخل فيها انشاء المقال مع عنايته باختيار الموضوعات التى تفيد الجمهور المصرى وقتئذ مثل العلاقة بين الحاكم والرعية وشرح وظائف الحكومة ؛ ووصف انواع الحكومات الأجنبية وانصرف الى تبسيط الاساوب . وبذلك وضع الاساس الأول لانشاء المقال فى الصحافة العربية. وقد ثابر رفاعه الطهطاوى على تحرير « الوقائع المصـرية » التى كانت تصدر اسبوعية حتى ولاية عباس فكان حظ الصحيفـة كحظ المدارس وغيرهـا من المنشآت التقدمية ، وخاصة بعد ابعاد رفاعه الى السودان ، فاختفت منها المقالات السياسية والاقتصادية و الاخبار الخارجية وكثير من الاخبار الداخلية ؛

انقطعت صلة رفاعه الطهطاوى بالصحافة حتى تولى الاشراف على مجلة « روضة المدارس » التى صدر عددها الاول فى ١٧ ابريل سنة ١٨٧٠ وعهد بتحريرها الى ابنه على فهمى رفاعه ، وجعل شعارها هذين البيتين .

تعلم العـلم واقرأ تحز فخـار النبوة
فالله قـال ليحيي خذ الكتـاب بقوه

وقد جعل رفاعه من المجلة مجالا لاقلام رجال التعليم وطلاب المدارس ممن ذاع صيتهم فى الأدب فيما بعد ، وقد كتب على مبارك خصيصا لها كتاب

« تنوير الافهام فى تغذى الاجسام » وعبد الله فكرى كتاب .« كنوز الاشعار ومنثور الأفكار » واسماعيل الفلكى كتاب « بهجة الطالب فى علم الكواكب ورفاعه الطهطاوى كتاب « القول السديد فى الإجتهاد والتجديد» ومحمد عثمان جلال كتاب « النكات وباب التياترات » ، كما وضع مسرحية بعنوان « الفخ المنصوب » باللغة العامية . وهى النص الوحيد الذى نشر باللغة العامية .

وفى هذا العهد المتأخر من عمره نشط رفاعه للتأليف ، وكان قد تقدمت به السن وكثرت المهام. فالف كتابا يعد من أجل كتبه شأنا وأوضحها بيانا عن افكاره وأرائه وهو كتاب « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » وهو جامع لاداب العصر وعلومه وفنونه وسياسته وصناعته نجد فيه كيف يلتقى العقل الشرقى بالعقل الغربى ويتمازج التفكيران. وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٧٦٩. ثم شاء رفاعه ان يكتب تاريخ مصر من اقدم عصوره الى عهده ؛ وكان قد أعد لذلك عدته من مطالعات وغيره فى العربية وغير العربية : وقد أتم من هذا الكتاب جزئين أولها كتاب « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » ويقول محمد الصادق حسين أن فى هذا العنوان اشارة الى أن صدوره وافق تنظيم وراثة للعرش فى ابناء اسماعيل.؛

وقد استهل رفاعه كتابه بمقدمات تمهيدية عن التاريخ وعن قدم المدنية فى مصر وفضل مصر على العالم فى نشرها وعن الأسباب التى أدت الى سبق مصر بالتقدم وازدهار المدنية فيها. ثم قسم تاريخ مصر وبين نظامها الملكى والحدود والعقوبات وتقدم الفنون والمعارف ، وتحدث عن جغرافية مصر الطبيعية وبيان حدودها . وبعد هذه المقدمات عرض رفاعه لتاريخ مصر . وكان يحاول أن يخلص الحوادث من الخرافات والاباطيل ويمحص الروايات عن طريق العقل. وقد وقف فى كتابه عند ظهور الاسلام :

وسار رفاعه في كتابة التاريخ فوضع الجزء الثاني من مؤلفه بعنوان «نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز » وقد خصصه لسيرة الرسول ومراحل دعوته ، وانتقل الى الكلام عن نظام السلطنة الاسلامية ، وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية والوظائف الكبرى كالوزارة والحجابة والعطاء والديوان والامارة والقضاء والحسبة ونظام الجيش والعمالات الجبائية .

وقد نشر هذا الكتاب تباعا في مجلة (روضة المدارس) وادركته المنية الكتاب لا يزال ينشر :

وكذلك جرى لكتاب (المرشد الأمين للبنات والبنين) الذى كتبه رفاعة في آخر حياته ، وقد تولى ابنه على فهمى رفاعة الاشراف على طبعه كما فعل بالكتاب السابق :

وترى أى نشاط زاوله رفاعة رافع الطهطاوى فى أخريات حياته ، وأى كتب جليلة ألفها فضلا عن اشتغاله بمختلف المهام التى وكل إليه أمرها والتى عددنا بعضها من قبل مما جعل الصادق حسين بقول أن اثاره فى شيخوخته تدل على علم ناضج ونشاط ذهنى كبير : »

وكانت وفاته الى رحمة ربه فى ٢٧ مايو سنة ١٨٧٣ .

لا غرو بعد هذه الحياة الطويلة الحافلة بجلائل الاعمال ، وعظيم المآتى والآثار ، وما أنطبعت به من طابع الجد والعمل والحصافة والتعقل وما انتجت من اثار فى مختلف الوان الأدب ، لاغرو اذا قلنا أن رفاعة رافع الطهطاوى كان الرائد الأول لنهضتنا الادبية الحديثة ، وهى تمتاز بطابع علمى حاول رفاعة بحكم دراسته بباريس وثقافته الاجنبية ان يضفيه على الادب العربى . لذلك بينما نجد الشيخ ناصيف اليازجى مثلا ببيروت يؤلف فى جميع العلوم والفنون التى كتب فيها العرب وعلى طريقتهم ، نجد رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر يتناول الى جانب علوم اللغة والفقه الوانا جديدة من التأليف والترجمة .

وقد انتفع رفاعة كثيراً من ثقافتيه العربيــة والأجنبية وتعمقه فيهما معاً فانسرحتا على جميع كتاباته . وهكذا نجده يتناول مختلف الموضوعات فى الفقه وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافية والاداب والاجتماع والتربية والهندسة سواء بالتاليف أو الترجمة ، كما أفاد فى هذا جميعه ترجمة بعض الكلمات ذات المعانى الحديثة . وقد ذكرنا طريقته فى ذلك عند الحديث عن كتاب «الذهب الابريز» ، وكيف اذا لم يعثر على اللفظ العربى الدال على معنى الكلمة الاجنبية نقل المعنى بجملة طويلة أو استعمل اللفظ الفرنسى فاستعربه واشتق منه فعلا يصرفه . وكان رفاعة فى عمله هذا يقوم مقام مجمع لغوى باكمله . وقد جمع بعض الباحثين الألفاظ التى اطلقها على المسميات الاوربية ما منها ، ظل مستعملا حتى اليوم مثل التربية ، التنمية ، المعارف الدينية والمعاشية ، المعنوية ، الارشاد ، التاديب ، التطبع ، الكمالات ، ملكة راسخة ، ادراك ، ذكاء متوسط ، الهيئة المجتمعة ، طاقة ، الرياضة الشاقه ، عقل نورانى ، الارادة ، الميل النفسى ، ضمير ، التجربة ، الممارسة .

وكان رفاعة بعد هذا وذاك ، أو قبل هذا أو ذاك أديباً يملك ناصيتى النثر والشعر . ففى جميع مؤلفاته نجد الادب يطغى على الاسلوب فيتبسط فيه، ويكثر من السجع ، والتمثل بالشعر القديم وبالاقوال المأثورة .

وكان رفاعة شاعراً. وكان يؤمن بان الشعر هبة، وكان اكثر ما ينظم فى مناسبات اخصها مدح الحكام والولاة فى عهده ، وفى موضوعات وطنية : وفى هذه الموضوعات نجده يصدف عن القصيد ذى القافية الواحدة وينظمه بيتين بيتين يلتزم قافيةواحدة فى ثلاثة شطرات الثنائية ويجعل روى الشطرة الرابعة القافية التى يلتزمها فى القصيد . هذا قوله .

وعزيز الموطن نخدمه	برضا فى النفس نحكمه
المال المصرى كذا دمه	مبذول فى شرف الوطن
تفدية العين بناظرها	والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها	لشرا العليا اغلى ثمن

ولعل رفاعه كان يقصد الى النظم على هذا المنوال لانه كان يعد قصائده لطلبة المدارس حتى ينمى فيهم حب الاوطان والرغبة فى دراسة تاريخ مصر وامجادها :

ومن الموضوعات التى اكبر من النظم فيهامدح أهل البيت و التوسل بهم، والمعروف ان نسب رفاعه يتصل بفاطمة للزهراء ، فيقول :

انتمائى لكم يصفو صفاتى	يال بيت الزهراء أزهى صفاتى

وقلما قصد رفاعة فى شعره الى غايات خاصة فلم ينظم مثلا فى باريس ، وانما ضمن بعض قصائدة الشكوى من حالته عند اقامته فى السودان. وله قصيدة واحدة في وصف القطار ويسميه (الوابور) استهلها بقوله :

العقل فى (الوابور) حار يبغى الجواب فلا يجيء

ويقول فيها :

بركان نار حيث ثار فورا وصار له هدير
أو سائح يهوى السفار لمصالح الدنيا سفير
أو عاشق سلب القرار أو يحسد الطرف القرير
فى الحب قد خلع العذار ودموع مقلته غدير

على اننا نلاحظ أن رفاعة الطهطاوى كان يعالج النظم فى بعض أوقات الفراغ ولا غراض خاصة ، ولم يعن بالتبريز فيه كما فعل فى الفنون الاخرى ، لذلك يعوزه مران الشاعر فى مداورة الالفاظ والعبارات واختيارها وجزالة الاسلوب وتدفقه ، وان كان يحسن الاختيار لاوزان الشعر التى تلائم الاغراض التى يقصدها من القصيد .

وكان رفاعة الى جانب نظمه للشعر واوعاً بالاستشهاد بالشعر على نحو ما جرى عليه قدماء العرب . فهو مثلا اذا رأى فى مرسيليا مرايا متقابلة تظهر فيها اكثر من صورة للانسان ذكران خاصة المرايا تثنى الصورة فقط و استشهد بقول بعضهم « فى هذا الشأن » .

ايرفع منظر المرآة عنه مخافة ان تثنيه لعينى
اقاسى ما اقاسى وهوفذ فكيف اذا تجلى الفرقدين

ثم استطرد فقال : ومن كلامى :

يغيب عنى فلا يبقى له أثر سوى بقلبى ولم يسمع له خبر
فان بدا وارى المرآة طلعته يلوح فيها بدور كلها صور

ثم يستشهد بابياتات لأبن سهل وللحريرى .

على أنه لابد من الاشارة الى ان رفاعة الطهطاوى عاصر اثناء اقامته بباريس ثورة عارمة فى الادب الفرنسى قام بها اشياع الابتداعية (الرومانطيقية) وخاضوا فيهامعارك مثل مظاهرتهم ليلة تمثيل «هرنانى » على مسرح الكوميدى فرنسيز ، ولكنه لم يتأثر بهذه الثورة ولم يبحث اسبابها ونتائجها فى حين وصف الثورة السياسية التى قامت ضد الملك شارل العاشر . ولعل اساتذته — وجميعهم من انصار الادب الابتداعى(الكلاسيك)— جعلوه يبتعد عن مثل تلك الثورة فى الادب أو أنه وجد ان المجال فى الادب العربى لم يكن يسمح ايامئذ بها . وأنه آثر خدمة بلاده ولغته بوسائل رأى أنها انفع واجدى .

وقد افاد رفاعة رافع الطهطاوى بالطريق الذى سلكه فألف وترجم وهذب الناشئة وعلمها واخرج جيلا أدى لمصر وللعربية خدمات جليلة .فحق عليه لقب الرائد الأول لهضتنا الحديثة .

الجاحظ

هو عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثى الكنانى ، وكنيته ابو عثمان ، ولقب بالجاحظ لأنه كان مشوه الخلق جاحظ العينين ، اى بارزهما . وكان يلقب ايضاً بالحدقى لأنه كان ناتىء الحدقتين . وانما غلب عليه لقب الجاحظ . وكان يتبرم بهذا اللقب الذى يشير الى دمامة خلقه ويود لو أن الناس دعوه باسمه ، ولكنه كان هو يعرف نفسه بهذين اللقبين . قال : « اتيت منزل صديق لى فطرقت الباب فخرجت الى جارية سندية . فقلت : قولى لسيدك الجاحظ بالباب . فقالت : اقول الجاحد بالباب — على لغتها — فقلت : لا قولى له الحدقى بالباب . فقالت : أقول الحلقى بالباب ، فقلت : لا تقولى شيئاً . ورجعت » ولا غروان يتبرم الجاحظ بلقبه ثم يعرف نفسه به . فالاضداد ظاهرة من ظواهر أدب الجاحظ وتفكيره .

كان الجاحظ مولى لأبى القلمس الكنانى . وقد ذكروا أن فزارة جده كان اسود وأنه كان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى . ولعل الجاحظ ذكر سواد جده حين كتب رسالة فى «فخر السودان على البيضان» . وقد زعم بعضهم ارتكازاً الى ولائه لأبى القلمس وسواد جده أن الجاحظ لم يكن من أصل عربى . وهذا خطأ ، لأن الجاحظ كان عربيا يفخر بعروبته ، شديد العصبية للعرب . وكان لا يرى فضيلة فى امة الا ويرى اكبر منها لهم ، بل أنه لايرى أمة من امم الارض تفضل الأمة العربية ، وما من فضيلة من فضائل الإنسانية الا والعرب اسبق الأمم اليها واخصهم بها .

ولد الجاحظ بالبصرة فى منتصف القرن الثانى للهجرة . وقد اختلف مؤرخوه فى تحديد سنة ولادته. فنهم من قال انه ولد سنة ١٥٩ للهجرة ، وروى

ياقوت الحمــوى أن الجاحظ قال : « انا اسن من ابى نواس بسنة ولدت فى أول سنة ١٥٠ هـ : وولد فى آخرها » . فتكون ولادة الجاحظ سنة ٧٦٧ م »

على أن الاستاذ فؤاد البستانى يشك فى صحة هــذه الرواية لأن ابا نواس ولد على ما هو مشهور سنة ١٤٥ (قلنا : وقد جعل ابن خلكان ولادة ابى نواس سنة ١٤٦) ويقول بعض المؤرخين انه ولد سنة ١٣٠ ، وكلا التاريخين بعيد عن ميلاد الجاحظ : ثم نحن نعرف أن الجاحظ توفى سنة ٢٥٥ فاذا جعلناه من لدات ابى نواس ، تجاوز عمره المائة بكثير ، وهو أمــر لم يشر اليه احد ، بل اتفق الجميع تقريبا على انه تجاوز التسعين من عمره : وبلغ بعضهم الى القــول بالست والتسعين : فاذا اعتبرنا هــذا الحد الأقصى رأينا أن مولده يقع حوالى السنة ١٥٠ هـ ، أى ٧٧٥ م .

ولد الجاحظ بمدينة البصرة ، وكانت ايامئذ زاخرة بالعلم ورجاله . وفيها النحاة والعلماء واللغويون والادباء . وكانت بينها وبين الكوفــة منافسة ، وبين علماء المدينتين تجاذب وجدل . وكانت ايامئذ بغداد فى اوائل تأسيسها يقصدها العلماء للاتصال بالخلفاء ورجال الدولة ، أما البصرة والكــوفة فكانتا لا تزالان محتفظتين بمقامها فى العلم والأدب يقصد اليها طلاب العلم يستقونه من موارده و ينهلونه من مصادره ويطلبونه على مشايخه و اساتذته حتى اذا تمكنوا منه رحلوا الى بغداد أما لاتمام الدرس أو توسيع المعارف أو الاتصال بالخلفاء والوزراء . وقد يلح طلب العلم على بعضهم فيطوف بالبادية ويتصل بقبائلهــا وينقل عنهم الروايات ، ومختلف اللهجات واللغات . أو انهم يقصدون المدن الاسلامية الكبرى لإتمام علومهم .

ولم يكن طلب العلم بالبصرة بالامر الصعب . فقد كانت ثم مدارس صغيرة فى احياء المدينة تعلم مبادىء القراءة والكتابة . حتى اذا أخذ الطالب منها قسطه

انتقل الى المساجد العامة و المعاهد الخاصة ليحضر الدرس الذى يلقى فى حلقات اختصت كل واحدة منها بعلم وفن ، وبشهد المساجلات العامة التى كانت تقام بين العلماء . وكان يجتمع ايامئذ فى مسجد البصرة الكبير كثير من الادباء والعلماء والنحاة واللغويين . وقد ذكر الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » انهم كانوا يعرفون بالمسجديين . ولا شك أن الجاحظ قد اتصل بهؤلاء واولئك جميعاً ، وانه طلب العلم فى جد ، وحصله فى نشاط ، وانه وقف على جميع العلوم والمعارف التى كانت متداولة شائعة وقتئذ . وكان الجاحظ كما يظهر من مجموع اخباره وافر الذكاء ، سريع الحفظ ، مجداً فى طلب العلم لايقعد عند مطلب آخر مهما علت قيمته .

ولا شك فى أن الجاحظ كان يذهب كذلك الى « المربد » ، وهو مكان بظاهر البصرة ، كانت تفد عليه الاعراب لعرض سلعهم والاتجار ، وكان يلتقى فيه الادباء والخطباء والشعراء والرواة وغيرهم من أهل الأدب فيعرضون منتجات قرائحهم على نحو ما كانت العرب تفعل فى عكاظ وكان الجاحظ يفيد من الاتصال بالاعراب معرفة بصحيح اللغة وقويمها .

ولم يكتف الجاحظ بطلب العلم على اربابه بل كان يقضى جل اوقاته فى المطالعة . وقد قيل انه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، وانه كان يكترى دكاكين الوراقين — وهم الذين يعنون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون الى دكاكين الوراقين ويقرأون ما فيها من كتب — ويبيت فيها للنظر فى كتبها ، وانه ربما نسى كنيته بين الكتب ثلاثة أيام حتى سأل اهله عنها ...

ويزيد فى تحصيل الجاحظ ومكانته أنه كان وهو يطلب العلم فى ضيق من الرزق وخصاصة من العيش . وقد نقل ياقوت عن بعضهم قوله : « حدثنى من

رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان » ، وسيحان هذا اسم نهر وحى بالبصرة . وهذا دليل على أن الجاحظ كان يعمل ليعيش ، وانه كان يطلب العلم فى أوقات فراغه حتى نبغ فيه واشتهر ، فاقبلت عليه الدنيا ، وابتسمت له الحياة .

وسافر بعد ذلك الى بغداد لمتابعة طلب العلم فى مجالس اعلامها . فسمع عن ابى عبيدة والاصمعى وابى يزيد الانصارى ، فاتقن اللغة عليهم . ودرس النحو على الأخفش ، ثم تتلمذ لأبى اسحق ابراهيم بن يسار المشهور بالنظام ، وكان أمام المعتزلين ومن أكابر علماء المتكلمين ، فأخذ عنه الجاحظ مبادىء الفلسفة وطرق التفكير وتحكيم العقل فى الرواية المنقولة .

وكان الجاحظ يتردد على بغداد فى عهد خلافة المأمون يسمع باسمه ويتوق الى مطالعة شىء من تآليفه حتى وقع له كتاب «الامامة» فى صحيح الراوندية ، وقد ذكر الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين» أن المأمون أمر اليزيدى بالنظر فيه ليخبره عنه فقرأه اليزيدى واستدحه ، وقرأه المأمون فوجده على نحو ما كان يرجوه . ثم صار اليه الجاحظ فدعاه الى الاقامة فى حاشيته .

وكان أن خلا منصب رئاسة ديوان الرسائل من القائم بأعماله . فأمر المأمون باسناده الى الجاحظ فاضطلع بشئونه ثلاثة أيام ثم استقال فاقيل . وكان سهل بن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ فى هذا الديون أفل نجم الكتاب » ولسنا ندرى ما سبب استقالة الجاحظ .هل كانت نتيجة دسائس ووشايات قام بها بعض الكتاب للتخلص منه بعد آن تبينوا خطره عليهم ، أم أن روح الجاحظ كانت تأنف اسر الوظيفة وتود لو تبقى حرة طليقة من كل قيد ونعرف من بعض الروايات مدى ازدراء الجاحظ بالوظائف والموظفين . فقد روى انه دخل يوماً ديوان المكاتبات فرأى قوما قد صقلوا ثيابهم وصففوا عمائمهم

ووشواطر ازهم فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى « اما الزبد فيذهب جفاء » ، ظواهر لظيفة ، وبواطن سخيفة ، « فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم ممـا يكسبون » ، ولعل الجاحظ لم يقل هذه العبارة قصد التحقير بطائفـة الموظفين بل انتقاما لنفسه من أولئك الكتاب الذين دسوا له عند توليه رياسة ديوان الرسائل حتى اضطروا إلى الاستقالة .

ولعل الجاحظ لاحظ أن لسهل بن هارون دخلا فى هذا الدسائس ، وان قوله الذى ذكرناه كان من باب الحسد والضغينة فانتقم منه شر انتقام . ذلك أن سهل بن هارون ــ وكان متوليا للمأمون «خزانة الحكمة» ؛ وهى دار الكتب ، وكان كاتبا بليغا وشاعراً مجيداً ــ انه كان الى هذا جميعه بخيلا بلغ به بخله انه وضع رسالة فى مدح البخل وذم الكرم . وكان سهل شعوبياً ويقـال انه وضع هذه الرسالة التى جعلت من الكرم رذيلة ومن البخل فضيلة انتقاما من العـرب الذين اشتهروا بالكرم وانتصاراً للفرس الذين عرفوا بالبخل ، وخاصة أهـل خراسان منهم . وانتقام الجاحظ منه انه عندما وضع « كتاب البخلاء » جعـل من سهل بن هارون مثلا مضروباً فى البخل وروى عنه شتى الأخبار وكشف عن نقيصته وشنع عليه اشر تشنيع .

وتوفى المأمون وتولى الخلافة من بعده المعتصم فاختار وزيراً له ابن الزيات سنة ٨٣٥ م . وكان ابن الزيات يجمع بين السياسة والأدب ، وكان على اتصال بالجاحظ يقـدر مواهبه ويجل خطره . ولعله كان يشاطره اراءه فى المعتزلة ، فقربه اليه ، وانقطع الجـاحظ الى صديقه الوزير يمدحه ويراسله ، ويقيم تارة عنده ببغداد وتارة أخرى فى العسكر ، وهو اسم مكان فى سامرا كان مصيفا للخلفاء العباسيين ، وكان يقصده الجاحظ فى حاشيته أبن الزيات .

وظل ابن الزيات فى الوزارة بعد وفاة المعتصم وتولى الواثق وظل الجاحظ

على اتصاله به : ولعل هذه الحقبة كانت اسعد ايام الجاحظ . ويظن انه في غضونها قام باسفاره لتحقيق بعض المسائل فزار انطاكية ودمشق ، ولعله زار ايضاً مصر .

ووضع الجاحظ ايامئذ كتابه الحيوان وقدمه الى ابن الزيات فأجازه بخمسة آلاف دينار .

ولكن هذه الأيام لم تمتد طويلاً . وكان للوزير ابن الزيات عدو عظيم الخطر كبير الشأن ، هو القاضي احمد ابن ابي داؤد الذي ما زال يسعى بابن الزيات ويعمل على اسقاطه حتى بويع المتوكل بالخلافة سنة ٨٤٧ م ، وكان المتوكل عدوا للمعتزلة وحرية الفكر ، فاغتنم القاضي ابو داؤد هذه الفرصة وسعى لديه بابن الزيات فقبض عليه ورمى به في تنور في جوفه مسامير كان اعده ابن الزيات ليعذب فيه خصومه فكان أول من عذب فيه حتى مات . وقال ابن طباطبا أن ابن الزيات كان يجعل فيه من يريد عذابه . ولما جعل فيه قيل له : ذق ما كنت تذيق الناس .

أما الجاحظ ففر هارباً مخافة أن يكون الثاني في التنور ، كما قال معتذراً ، على ان اختفاءه لم يطل لأن رجال ابن ابي داؤد جدوا في البحث عنه حتى عثروا عليه وسجنوه ، ثم ادخلوه على سيدهم مغلول العنق بسلسلة من حديد ، مقيد الرجلين ، في قميص سمل . وقد روى ابو العيناء — وكان شاعراً مجيداً وكاتباً بليغا كف بصره في الأربعين من عمره — وكان حاضراً ذلك المجلس فقال اما مؤداه :

لما نظر احمد ابن ابي داؤد الى الجاحظ في ذلك الشكل الزرى قال له :

— والله ما علمتك الامتناسيا للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معددا للمساوىء ،

وما فتئ باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة دخيلتك وسوء اختيارك وغالب طبعك .

قال الجاحظ :

– خفض عليك ايدك الله . والله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن اسيء وتحسن احسن فى الاحدوثة من أن احسن وتسيء ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك اجمل بك من الانتقام منى .

فقال ابن ابى داؤد :

– قبحك الله . والله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام . وقد جعلت بيالك أمام قلبك ثم اضغنت فيه النفاق والكفر . ما تأويل هذه الآية « وكذلك أخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة . أن اخذه اليم شديد » .

– تلاوتها تأويلها اعز الله القاضى .

– جيئوا بحداد

– اعز الله القاضى ليفك عنى أو لبزيد فى

– بل ليفك عنك .

فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل امره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال :

– اعمل عمل شهر فى يوم وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة . فان الضرر على ساق وليس بجذع ولا ساجة .

وضحك القاضى ابن ابى داؤد وأهل المجلس وقال القاضى لمحمد بن منصور وكان حاضراً :

– انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه .

ثم امر احد غلمانه أن يسير بالجاحظ الى الحمام ويميط الاذى . وعاد الجاحظ الى المجلس بعد أن ارتدى ثيابا انيقة فصدره القاضى فى المجلس ثم اقبل عليه وقال :

هات الآن حديثك يا ابا عثمان .

وهكذا انقطع الجاحظ الى القاضى ابن ابى داؤد بعد أن كان منقطعاً إلى غريمه وصحبته ابن الزيات . وكان القاضى معجبا بظرف حديث الجاحظ ورقة اسلوبه . وظرفه هذا هو الذى شفع به لدى القاضى فعفى عنه وقربه منه وجعل المتوكل يعطف عليه بالرغم مما كان معروفا عن ارائه الحرةو تشيعه للمعتزلة .

وحكى الجاحظ عن نفسه انه ذكر اسمه للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه :

على انه ظل متصلا بالقاضى ابن ابى داؤد. وفى هذا الطور من حياته وضع الجاحظ كتاب « البيان والتبين » ورفعه الى القاضى فاعطاه خمسة آلاف دينار . ودامت وزارة القاضى عاماً كاملا اصيب بعده بالفالج فخلفه ابنه ابو الوليد محمد فى القضاء ، كما خلفه فى اتصال الجاحظ به ومدحه له ولبث فى حاشيته حتى اسقط عن مقامه وسلبت نعمته .

واخذ المتوكل يشتد فى اضطهاد اصحاب الآراء الحرة يوماً بعد يوم على اننا نجهل اذا كان اصيب الجاحظ بأذاه من هذه الحركة . وغالب الظن انه ظل فى مأمن من كل اعتداء بدليل ما جاء فى رسالة بعث بها اليه الفتح بن خاقان وزير المتوكل يقول له فى مستهلها : « ان امير المؤمنين يجد بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين

بعدك عن مجلسه ... » وتحدث الفتح فى ختام الرسالة عن جعل شهرى كان الجاحظ يتقاضاه من دار الخلافة .

٥ ٥ ٥

حضر الجاحظ يوما الطعام على مائدة ابن ابى داؤد ومعه يوحنا بن ماسويه الطبيب وكان فى جملة ما قدم مضيرة بعد سمك فامتنع ابن ماسويه عن الجمع بينهما فقال له الجاحظ :

— ايها الشيخ ، لا يخلو ان يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له: فان كان احدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وأن كان من طبع واحد فلنحسب انا قد اكلنا من احدهما الى أن اكتفينا .

فقال الطبيب

— والله مالى خبرة فى علم الكلام ، ولكن كل يا ابا عثمان والظر مايكون فى غده فاكل الجاحظ ففلج فى ليلته فقال :

— هذه نتيجة القياس المحال .

قيل : وكانت اصابة الجاحظ بالفالج قبل وفاته بثمالية اعوام فيكون ذلك سنة ٨٦١ م .

وقضى الجاحظ سنى مرضه بالبصرة حيث كان منزله مقصـد الزائرين من أهل الأدب وطلاب العلم . وقيـل أن المتوكل وجه الى الجاحظ فى السنة التى قتل فيها أن يحمل اليه من البصرة ، وكان الفتح بن خاقان قد سأله ذلك فوجده رسول المتوكل لافضل فيه . وقال الجاحظ للرسول :

— وما يصنع امير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؛

وكان الجاحظ يطلى نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لو قرض بالمقاريض لمـــا احس به من خدره وبرده . وكان يقول فى مرضه : « اصطلحت على جسدى الاضداد » أن اكلت بارداً اخذ برجلى وان اكلت حاراً اخذ براسى . واشد ما على ست وتسعون سنة » .

وزاره المبرد يوماً فسأله عن حاله فأجاب بكلام لا يخرج عن اجابته السابقة » ثم انشد :

اترجو أن تكون ألت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب خليق كالجديد من الثياب

وطالت به علته حتى وقعت عليه يوما كتب العـلم التى كانت مكدسة الى جانبه فقضت عليه . فكأنه كان مقدراً لهـذا الرجل الذى احب الكتب وقضى حياته بينها أن يظل ملازماً لها حتى تورده حتفه فى ميتة شنيعة .

وقد اختلف القوم فى تاريخ وفاته واصحها انه قضى نحبه فى شهر محرم من سنة ٢٥٥ هـ . (يناير سنة ٨٦٩ م) .

اجمع المؤرخون على وصف الجاحظ بانه كان قبيح المنظر ، دميم الخلق ، بارزالعينين ناتئهما ، قصير القامة . ولم يذكر غيرهذه من مظاهر البشاعة ، ولعله كان كذلك افطس الانف غليظ الشفتين — الم يكن جده عبداً أسود ؟ — الى غير ذلك مما نستطيع ان نتخيله بعد تلاوة هاتين القصتين اللتين رواهما عن نفسه ، قال :

«ما أخجلني إلا امرأتان: رايت احداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فاردت أن امازحها فقلت : « انزلي وكلي معنا » فقالت : « اصعد انت حتى ترى الدنيا (معرضة في ردها بقصره)».

« واما الاخرى فانها اتتني وانا على باب داري فقالت : « لي اليك حاجة وانا أريدأن تمشي معي » فقمت معها الى أن اتت بي الى صائغ يهودي فقالت له « مثل هذا » وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : « انها اتت الى بفص وامرتني ان انقش عليه صورة شيطان فقلت : ياسيدتي مارايت الشيطان ، فاتت بك ؛ »

وبعد هذا نرى ان المتوكل كان على حق حين استبشع منظره وابى عليه تأديب بعض ولده ؛ ولعله خاف عليه ان يؤثر قبح منظر الاستاذ في نفس التلميذ ، والصغار يجب ان يتعودوا على منظر الجمال لتطبع صورته في نفوسهم فيطلبوه في كبرهم ، وما ابعد الجاحظ عن هذا :

ولكن أية روح كان يضم هذا الهيكل الدميم المنظر ، وهل عوضته الطبيعة بعد ان افقدته جمال الخلقه بجمال الروح وحسن المخبر ؛ هذا مالا يقره الكثير ، ولكنها عوضته قوة عارضة ووفرة ذكاء ورجاحة عقل وحسن حديث

وظرف نفس .

أجل ، كان الجاحظ ظريفاً فى احاديثه ومجالسه ، ظريفاً فى نكاته واقاصيصه سريع البادرة ؛ حسن الجواب لاتفوته النكتة يقولها مهما كانت لاذعة قوية ، سواء عن نفسه أوعن غيره : وكان كذلك فى مؤلفاته أيضاً :

وهذه القصة التى نسردها نقلا عن الجاحظ فى شيعى تمثله تمام التمثيل ،

قال الجاحظ :

كان رجل من أهل السواد يتشيع (وأهل السواد هم فلاحو أرض العراق وزراعها) وكان ظريفاً فجاءه واحد ابناء عمومته وقال له :

— بلغنى أنك تبغض عليـا . و والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك :

— وهل الحوض فى يده يوم القيامة ؟

— نعم .

— ما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس فى الدنيا بالسيف ، وفى الآخرة بالعطش ؟

— اتقول هذا مع تشيعك ودينك :

— والله لاتركت النادرة ولو قتلتنى وادخلتنى النار فى الآخرة :

ولاأظن الجاحظ الا كان هكذا . انه يتهكم على نفسه ويسخر من قبح منظره وقصر قامته ويذكر فى ذلك العديد من النوادر : وقد طالعناه من قبل يروى حكاية الأمر أتين ، وشهدناه كيف وقف بين يدى القاضى ابن ابى داود والموت

أقرب إليه من الحياة وكيف كان يعبث فى ردوده ويتبرم ببطء الحداد فى كسر قيوده ويضحك الحاضرين . وانظره وهو فى اخر حياته وقد اخذ الفالج منه مأخذه وشعر بزوال الحياة وقرب الموت ، يقول ليموت بن المزرع : « لم يبق من ملذات الدنيا الا ثلاث : ذم البخلاء واكل القديد ، وحك الجرب. »

وهكذا نجد أن الفكاهة طبيعة أصيلة فى الجاحظ وأن نفسه كانت تميل الى المرح والهزل ، وانه كان يلتقط النكته أيا وجدها ولا يبالى اذا كانت عليه أو على غيره من الناس .

وقصته مع البرمكى الذى عاده أبان مرضه تكشف عن نواحى من نفسه . وكان هذا البرمكى عاملا على السند فكسب ثلاثين الف دينار ثم أقيل من وظيفته وخاف على ماله فصاغ عشرة الاف أهليلجة ، والاهليلج ثمر مختلف الانواع كثير الاصناف من اصفر وأسود وهندى وصينى وهو مستدير مستطيل بشكل البلوط أو البلح ، وهو عند اصحاب المساحة شكل ذو دائرة الى طول ، وجعل فى كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل . ثم ركب البرمكى وانحدر الى البصرة فعلم أن الجاحظ بها وانه عليل بالفالج فاحب ان يراه قبل وفاته : فصار الى منزله وقرع الباب فخرجت اليه جارية صفراء فأخبرها أنه رجل غريب ويحب أن يسر بالنظر الى الشيخ وسمع البرمكى الجاحظ يقول للجارية قولى له : وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ؟؟ ولكن البرمكى الح فقال الجاحظ : هذا رجل قد اجتاز البصرة وسمع علتى فقال احب ان أراه قبل موته فاقول قد رايت الجاحظ .

ثم اذن له فدخل وسلم فرد الجاحظ رداً جميلا وسأله : من تكون اعزك الله . فانتسب فترحم الجاحظ على اسلافه واباثه السمحاء الاجواد . وطلب منه البرمكى ان ينشده شيئاً من شعره فقال :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما　　مشيت على رسلى فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتى صروفه　　فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

ثم نهض البرمكى فلما قارب الدهليز قال له الجاحظ : يافتى أرأيت مفلوجاً ينفعه الا هليلج فقال البرمكى: لا ، قال الجاحظ : ان الا هليلج الذى معك ينفعنى فابعث الى منه . فخرج البرمكى متعجبا من وقوفه على خبره مع كتمانه له ، وبعث اليه بمائة اهليلج ،

وليس موضع العجب ما اشار اليه البرمكى ، اذا صحت هذه القصة ، ولكن العجيب كيف أن هذا الشيخ الفانى يرسل النكات ويتحايل على كسب المال الذى سيغادره بعد حين ، والقصة ذات دلالتين احداهما روح الجاحظ الفكهة والثانية عادته فى تكسب المال من وراء السؤال ، وقد تمكنت فيه هاتان العادتان حتى لازمتاه فى شيخوخته وهو على فراش الموت ،

هذه الروح الفكهة هى التى قادت الجاحظ الى أن يملأ كتبه قصصا ونوادر وان يجعل من احاديث العامة فنا يستروح به الخاصة ، وأن يتندر باخبار الاصدقاء والاخوان تارة بالتلميح واخرى بالتصريح غير عابىء بعتبهم ولا معتد بلومهم ،

وقد اسعفه ظرفه فى التقرب من العظماء والقواد والخلفاء ، وكانوا يتنافسون فى ملازمته لهم ويطربون فى مجالسته لينعموا بلذيذ احاديثه وطريف نكاته ومستملح نوادره ، ولم يكن واحد منهم الا ويتمنى أن يكون الجاحظ الى جانبه ، وفى حاشيته ، ألم يتنافس الوزير ابن الزيات والقاضى ابن ابى داؤد فى سبيل صداقة الجاحظ فكان هواه مع ابن الزيات فآثر ان يفضل جانبه حتى اذا نكب وقبض عليه رجال ابن ابى داؤد ابى أن يقتله انتقاماً منه على تفضيله ابن الزيات عليه على طريقة ذلك العصر بل ضمه الى حاشيته ليستمع الى احاديثه ،

وقد ساعد الجاحظ على حسن حديثه وجميل سمره ما كان يحفظه من اخبار العرب وما يرويه من اشعارهم ، ولعل الجاحظ كان يؤلف الكثير من النكات التى كان يرويها .

ولا ادل على تفوق الجاحظ فى هذا من أنه استطاع أن يجالس الخلفاء والوزراء والامراء على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم واخلاقهم وعقائدهم كما استطاع أن يرضيهم جميعا وأن ينال رفدهم . فقد كان وهو فى البصرة يمالىء رؤساء الموالى واعيان الهاشمية والعثمانية فيبتز مالهم وينال صلاتهم ، وله فى ذلك خبرة ودراية . ورأيناه فى بغداد حين اشتدت وطأة المتوكل فى اضطهاد المعتزلة لا يتصل اذاه بالجاحظ بل يحاول أن يعهد اليه بتربية بعض ابنائه ويرسل الى البصرة فى طلبه .

ولم يكن الجاحظ يعتمد على طرافة احاديثه وظرفها ليتصل بالخلفاء والوزراء بل كان يعتمد كذلك على ادبه وشعره ومؤلفاته : فهذا المأمون يتصل به بعد ان طالع كتابه فى الامامة ، والوزراء يجزونه على كتبه التى يقدمها اليهم خير الجزاء . ولاغرو فقد كان فى هذا يسير على النحو الذى كان يستخدمه أدباؤنا ايامئذ فيتكسبون من نظم القصائد فى مدح من يجزل لهم العطاء ، ويرفعون كتبهم ومؤلفاتهم الى من يحسن مكافأتهم ويغلى لهم الجائزة .

على أن الجاحظ الذى أفاد من مواهبه ومن اتصاله بالخلفاء والوزراء فكسب ما كسب من مال وجاه كان يأبى أن يفيد غيره لأنه كان انانيا بحتا . ومن غرائب الاضداد فى اخلاقه — وهو الوارع فى الموضوعات المتضادة — انه بينما كان يحصى على أصدقائه اغلاطهم وفلتات لسانهم ومساوئ اعمالهم ،

وبينما كان يقيد عليهم انفاسهم وغريب تصرفاتهم وشذوذ أغراضهم ، كان نفسه يقع فيما يسجله على غيره : فهذا الذى طالما تندر على البخلاء ، كان هو نفسه بخيلا ، وكان بخله لا يقتصر على منع المال أو الضيافة بل كان يمتد الى الامتناع عن كل مايعود بالنفع على الغير . وهذا الذى من الله عليه بالجاه العريض كان لايلبي نداء صديق و لا يقضى حاجة سائل ، فكان يرد كل من ساله حاجة مهما كانت منزلته لديه ، ومهما بلغت صداقتهما من المتانة . وكان يرد سائليه بما طبع عليه من النكات والاجوبة المستظرفة التى لا تقضى حاجة ولا تعين على ضيق ، وفى القصة التالية التى رواها عن نفسه دليل واضح على اخلاقه ونفسيته ، قال :

« سألنى بعضهم كتابا بالوصية الى أحد أصحابى ، فكتبت له رقعة وفتحتها فلما خرج الرجل من عندى فضها فاذا فيها : « كتابى اليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فان قضيت حاجته لم احمدك ، وان رددته لم أذمك . » فرجع الرجل فقال : كأنك فضضت الورقة ، فقال : نعم فقلت لا يضير ما فيها فانه علامة لى اذا أردت العناية بشخص . فقال : قطع الله يديك ورجليك ولعنك فقلت : ماهذا ؟ فقال هذه علامة لى اذا أردت ان أشكر شخصاً .

فلا غرو اذا رأينا أصحابه يعيرونه بهذا النقص وينعون عليه انانيته وأثرته :

قال صديقه أبو كريمة البصرى يهجوه ،

لم يظلم الله عمرا حين صيره	من كل شىء سوى أذى به عارى
بنت حبال وصالى كفه قطعت	لما استعنت به فى بعض أوطارى
فكنت فى طلبى من عنده فرجا	كالمستجير من الرمضاء بالنار

اني أعيذك والمعتاذ محترس من شؤم عمر بعز الخالق البارى
فان فعلت فحظ قد ظفرت به وأن ابيت فقد اعلنت اسرارى

ولعل انانيته وأثرته وما وصفناه من أخلاقه هى التى جعلته يصدف عن الزواج وحياة الاسرة لأنها تنطوى على ربقة وتضحية ، ويؤثر للتسرى لأنه فيه متعة ولذة . ويرى حسن السندوبى أن الجاحظ كان « ميالا بطبعه إلى التحلل من القيود التى نقف بامثاله ونظرائه من معاصريه عند مقتضيات التقاليد وموجبات العادات . فهو لم يشأ اتخاذ زوجة تشاركه بأساء الحياة وضرائها ، بل انصرف الى اتخاذ الجوارى والفتيات يتسرى منهن بما تطيب بها نفسه ويصبو اليها حسه ويمسكها ما أستقام أمرها معه ثم هو فى حل من أن يتركها فى خدمته وقضاء أربته ، أو إذا شاء دفع بها إلى السوق وجاء بغيرها » . ولهذا يقرر السندوبى أن الجاحظ كان « يرى الاستمتاع بملاذ الحياة واطايبها ويطمع أن ينال منها ما يمكن أن تصبو اليه أوسع النفوس البشرية أملاوغاية » .

وقد عاش الجاحظ فى عصر رخاء واستمتاع ، وهو العصر الذى يبدأ بخلافة الرشيد ويمتد الى ما بعد المتوكل . وكان عصر مدنية ورفاه ، وكان الناس يقبلون فيه على الحياة فى شتى الوانها البراقة . فلا غرو اذا رأينا الجاحظ يأخذ من عصره بما سمح به الزمان . على أنه كان مقتصداً محتفظاً متستراً . واذا كان الجاحظ شديد الاعجاب بابى نواس وحياته الممتعة وأخذه باسباب العبث (المجـون فقد كان يختلف عن ابى نواس بانه يصـون كرامته بتخفية على معاصيه ومتستره فيما يستبيحه من المحرمات . ولم يرو أن أحداً من خصومه ، على ما كانوا عليه من كثرة عدد وشدة وطأة وعظيم خطر ، استطاع ان ينـــال من سمعتـــه أو يطعن فى كرامته .

وجملة القول أن الحكم على شخصية للجاحظ مختلف باختلاف طريقة تناولها ، على انها شخصية تظهر مغرية على الحب والتعلق بها لدى التعرف عليها ، فقد يتردد المطالع فى تقرير رأيه حينما ولكن الجاحظ لا يترك مجالا لاعمال الفكرة بل يستهوى من يلازمه بلذيذ نكاته ورقيق حديثه ورقة حاشيته بحيث ينتزع منه اعجابه وحبه .

أن من ينعم النظر فى كتب الجاحظ على اختلاف موضوعاتها من علمية وغير علمية يجد أن صفة الادب غالبة عليها ؛ وقد كان الجاحظ اديبا فى نفسه يحب الدرس والمطالعة ويطمح الى أن يقف على كل الافكار الشائعة فى عصره والعلوم المعروفة فى ايامه شان كل اديب متثقف فى كل عصر . وإذا تعمق فى بعض الابحاث من علمية أو فلسفية أو دينية فانما فعل ذلك ، أو انتهى اليه عن طريق الادب ، لأن مطـــالعاته الشتيتة وحضوره الدروس على الأساتذة والائمةهيأته لكى يكونواسع الثقافة وأنيقف على شتى الاراء والأفكار المتداولة فاخذ منها ماوافق هواه .

ولقد كان الجاحظ اديبا يحب الكتب واقتناءها ويقدرها قدرها ويسعى إلى الحصول على النفيس منها فى أجمل شكل على عادة من نسميهم اليوم «ببليوفيل» أى محبى الكتب وهذه قصة تدل على هذا الحب فقد قيل أن الجاحظ اراد مرة زيارة محمد بن عبد الملك الزيات فدخل عليه و قد افتصد فقال له :

ـ ادام الله صحتك ووصل غبطتك ، ولاسلبك نعمتك .

فقال ابن الزيات : ماذا أهديت الينا ياابا عثمان .

فقال : فكرت فى شىء أهديه فاذا كل شىء عندك ؛ فلم أر اشرف ولا اطرف من كتاب سيبويه بخط الكسائى وعــرض الفراء ؛ وقـــد اشتريته من ميراث الفراء .

ولدى مطـــالعة ماكتبه الجاحظ عن فضل الكتاب فى الفصل الأول من كتاب الحيوان نجد كيف يعرف هذا الفضل مما لا يشعر به غير من تمكن الادب من قلبه ولبه . ولعل هذا الفصل هو الأول من نوعه فى ادبنا العربى ، ونجد

بعده كلاماً فى هذا الصدد للفخرى ثم لياقوت . ولكن للجاحظ فضل التقدم عليهما .

وقبل الاستشهاد ببعض ما كتبه الجاحظ فى فضل الكتاب ننقل ما وراوه عن ابن الجهم عن الاستمتاع بالمطالعة . قال ابن الجهم :

« اذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو ترانى ، وأنا ساعة بعد ساعة ، انظر كم بقى من ورقة مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قلبه . وان كان المصحف عظيم الحجم ، كبير الورق ، كثير العدد فقد تم عيشى وكمل سرورى » .

وهذا بعض ما قاله الجاحظ فى وصف الكتاب :

« وبعد فنى رأيت بستاناً يحمل فى ردن ، وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء . ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تستهوى ، آمن من الارض ، واكتم للسر من صاحب السر ، واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة » .

وقال : « ولا اعلم جارا ابر ، ولا خليطا انصف ، ولا رفيقا اطوع ، ولا معلما اخضع ، ولا صاحبا اظهر كفاية ، ولا أقل جناية ، ولا أقل املاما وابراما ، ولا اجمل اخلاقا ، ولا أقل خلافاً واجراماً ، ولا أقل غيبة : : من كتاب ، ولا اعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الاذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب » .

كان الجاحظ اذن اديبا محبا للادب ، فضوليا فى العلم والمعارف ككل

اديب ، طالع ما نقـل من فلسفة اليونان ،ووقف على جميع علوم عصره ، وكان الى ذلك دقيق الملاحظة وافر الذكاء قوى الذاكرة ، فساعده هذا جميعه على تأليف كتبه التى تناول فيها كل علم وفن وملأها بالنوادر الادبية ، والفكاهات المستملحة مما وعته ذاكرته ولاحظه فى اصدقائه ومعا شريه واكتسبه فى اسفاره وتنقلاته :

وكانت للجاحظ طريقـة خاصة فى التأليف . فهو لا يتمسك بموضوعه ولايتمرس به ويبحثه اطرادا حتى آخر الكتاب بل نجده يستطرد من موضوع الى آخر حتى يجد نفسه فى النهاية قد بعد عن موضوعه الأصلى تماماً. أو كما قال فى كتاب الحيوان « ومتى خرج (القارىء) من آى القرآن صار الى الأثر ؛ ومتى خرج من اثر صـار الى خبر ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون اثقل والملال اليه اسرع حتى يفضى به الى مزح وفكاهة ، والى سخف وخرافة ، ولست اراه سخفاً : » وهكذا جاءت كتبه خليطاً من كل فن يمزج فيهـا الجد بالهزل ، والبحث بالرواية ، والعلم والأدب بالطرائف المستملحة .

والجاحظ يقول انه يستطيع ممارسة الموضوع الواحد من الأول الى النهاية ، ولكنه يخشى ملل القارىء كما يمل الناس الأصوات المطربة والأغانى الحسنة إذا طال السماع لها : ويأسف لأنه اضطر الى سلوك طريقته اضطراراً وهى فى نظره اصعب واشق على النفس من تصنيف الكتاب فى موضوع واحد. وقد وصف فى كتاب الحيوان ، مايلقاه من نصب فى انتهاجها .

ولهذه الطريقة فائدتها التى قصد اليهـا الجاحظ وهى الامتاع والتسلية ، وتعويد القارىء العـادى الصبر على المطالعة بل وتشويقه اليها ، خصوصاً إذا كتبت باسلوب اخاذ كاسلوب الجاحظ : ولذلك نجـد المسعودى يطرى كتب الجاحظ فى مروج الذهب فيقول « وكتب الجاحظ — مع انحرافه المشهور —

تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة ظريفـة » .

ولهذه الطريقة شرها البارز وهو اشاعة الفوضى فى الكتاب وبلبلة الاذهان وانصراف القارىءعن الموضوع الاصيل. وهذا ما أخذه احمد امين على الجاحظ حين قال : « ان الجاحظ مسئول عن الفوضى التى تسود كتب الأدب العربى ، فقد جرت على منواله وحـذت حذوه . فالمبرد تلميذه قد تأثر به فى تأليفه ، والكتب التى الفت بعده كعيون الاخبار والعقد الفريد فيها شيء من الترتيب» .

أما مؤلفات الجاحظ فعديدة بعضها صحت نسبته اليه وبعضها دس عليه ، وقد ذكر الجاحظ نفسه فى اول كتاب الحيوان قائمة كتبه فى معرض الرد على الذى عاب تآليفه فاذا هى تتجاوز الخمسين كتابا ، وقد عد له ياقوت اكثر من مائة مؤلف . وذكر حسن السندوبى قائمة كتبه فاذا هى تبلغ ١٥٩ رسالة . ولاشك أن غالبيتها لاتبلغ ضخامة حجم كتاب الحيوان أو البيان والتبيين ، ولعلها رسائل لا تتعدى بعض الصفحات .

واشهر كتب الجاحظ ثلاثة هى « البخلاء » و « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » .

◠ ◠ ◠

أما كتاب « البخلاء » فقد جمع فيه الجاحظ نوادر بخـلاء البصرة وفى طليعتهم سهل بن هارون الذى اشتهر بالبخل حتى الف رسالة فى مدحه . وقد ذكرنا من قبل كيف سعى سهـل بن هارون بالجاحظ عند المأمون حين تولى ديوان الرسائل فاضطر الجاحظ الى الاستقالة مما احفظه فثأر لنفسه فى كتـاب

البخلاء » إذ أرسل سهل بن هارون مثلا للبخل وجعله شنعة فى سائر الاجيال ».

ويقول بعض الباحثين أن غرض الجاحظ من بعض كتبه تصوير حياة الناس . ويصدق هذا القول على كتاب البخلاء فقد كان فيما صوره من حياة اولئك البخلاء الذين روى اخبارهم ، دقيق الملاحظة صادق التمثيل حسن الرواية ، ولعل هذا الكتاب ألذ كتب الجاحظ مطالعة وافكهها حديثا . وهو إلى هذا يتضمن شتيتاً من الطرائف والمعلومات عن الوان الحياة فى ذلك العهد . وقد ذهب بعضهم إلى القول بأنه « خليق بأن يستخرج منه بحث طريف فى أصول التدبير المنزلى وفى استثمار المال والانتفاع بحقائر الأشياء » . أما الجاحظ فقد قصد من ذكر هذا جميعه أن يجعله هزء الناس وسخرية العالم .

وقد صور الجاحظ فى كتابه اخلاق بعض بخلاء البصرة ابدع تصوير يجعلنا احيانا نذكر مسرحية موليير « البخيل » مع الفارق بين العصر والتفكير وطريقة التأليف .

ـــــــــــ

وأما كتاب الحيوان فقد جمع فيه الجاحظ ما تفرق فى الكتب وما انتشر على الالسنة من الأقوال والحكم والأمثال والاشعار عن الحيوان وعلاقته مع الانسان ، يتخلل ذلك نظرات فى الأدب والكتابة . وقد قال البغدادى أن الجاحظ « قد سلخ فيه معانى كتاب الحيوان لارسطاطاليس » ولكن الاستاذ فؤاد افرام البستانى علق على هذا بقوله : « على أن من يدرس الكتاب حق الدرس يعجب إذ يرى ضعف التأثير اليونانى فيه ، ولا سيما تأثير ارسطو ، ويتحقق أن كثيراً من تلك المنسوبات لأرسطو هى مرويات ، أما أن يكون رآها الجاحظ فى كتب منحولة للفيلسوف الكبير ، واما أن يكون الفها من عنده ونسبها الى غيره

ليجعل لها قيمة القدم : وقيمة الاجنبية جرياً على ما هو معـروف من عادته فى ذلك » . ولعل الاستاذ البستانى أشار فى هذه الفقرة الاخيرة إلى ماذكره الازهرى عنه إذ قال : كان الجاحظ روى عن الثقـات ما ليس فى كلامهم وكان أوتى بسطة فى لسانه وبيانا عذبا فى خطابه ومجالا واسعافى فنونه، غير أن أهـل العلم والمعرفة بلغات العرب ذموه وعن الصدق دفعوه» . إلى أن قال : « أن الجاحظ ذكر فى مجلس احمد بن يحيى (ثعلب) فقال « اعدلوا عن ذكـر الجاحظ فأنه غير ثقة ولا مأمون » .

على اننا نستطيع أن نقـول أهم مصادر كتاب الحيوان ما ورد فى القرآن الكريم والحديث عن الحيوانات وما جمعه الأدباء الرواة قبله واخصهم المدائنى من حكم العرب واسفارها فى منافع الحيوان وصلته بالإنسان، أضف إلى ذلك ملاحظاته الخاصة وآراءه الشخصية التى اكتسبها فى اسفاره التى يقال انه قام بها فى سبيل التحقيق العلمى ، وكذلك تجاربه التى ذكر انه اجـراها على الحيوان بدقة ودراية . وقد وصف الجاحظ هذه المصادر والمنهج الذى سلكه فى التأليف فى مقدمة الكتاب حيث قال : « وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وأن كان اعرابيا واسلاميا جماعيا فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة « واشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة » .

وقد صرف الجاحظ عنايته اكثر ما صرفها فى هذا الكتاب إلى بيان علاقة الحيوان بالبشر من بعض وجوهها وتأقلم الحيوان ، ونحن بينما نلذ فى مطالعـة الكتاب ، وننعم بأسلوبه ، وننتقل فى افانينه نلحظ أن هناك غاية قصد اليهـا الجاحظ وعمـل على تحقيقها فى جد متواصل وجهد متتابع ، وهو يستريح أثناء الطريق ويريح معه القارىء، ولكنه لايلبث أن يعود إلى قصده ، وهو بيان قدرة

الخـالق ، و اقامة البرهان على أن الحشرات الصغيرة لا تقل عن الحيـوانات الضخمة دلالةعلى حسن صنع الخالق واحكامه وتدبيره . وللوصول إلى هـذه الغاية يخوض الجاحظ فى الفلسفة الكلامية شارحاً عجائب المخلوقات وغرائب هذا الكون .

٥ ٥ ٥

يعد كتاب « البيان والتبيين »من امهات كتب الأدب ويذكره ابن خلدون بين الكتب الأربعة التى كان شيوخه يشيرون بدرسها . قال فى المقدمة : «وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول الفن واركانه أربعة دواوين وهى : « ادب الكاتب » لأبن قتيبة ، وكتاب « الكامل » للمبرد ، وكتاب « البيـان والتبيين» للجاحظ ، وكتاب « النوادر » لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » . ويضع المسعودى هـذا الكتاب فى مقدمة كتب الجاحظ حيث يقول : « وللجاحظ كتب حسان فيها «البيان والتبيين» ، وهو اشرفها لأنه جمع فيه من المنثور المنظوم وغرر الاشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به» ويرى بعض النقاد المحدثين — ولعله الدكتور طه حسين — ان كتاب البيان والتبين يجب أن يعد فى طليعـة الكتب التى عرضت للبلاغة والتى تعد كمقدمة لفن النقد .

وقد تناول الجاحظ الكلام عن الأدب والإنشاء والبيان والخطابة والخطباء ، وتحدث فيه عن السجع والتنميق ، وعن الشعر والشعراء ، وعن النساك والزهاد ، وعن اللحن واللحانين ، كما روى طائفة من الاحاديث والنوادر . وقد ذكر فيه الجاحظ كثيراً من اخبار الشعراء والأدباء واورد جملة من خطب النبى والخلفاء .

ويمتاز هـذا الكتاب عن سائر كتب الجاحظ انه ايقظ للتفكير وادعى الى التدبير ، ولعل ذلك كان بتأثير تقادم العمر ووفرة التأمل والتجـارب ، على أن

الجاحظ لم يترك طريقته الاستطرادية والتنقل بين مختلف الموضوعات وادخال بعضها فى البعض الآخر .

* * *

اما بقية الكتب التى قلنا انها كثيرة فنذكر منها « مناقب الترك » و « فضل السودان على البيضان » و « التربيع والتدوير » وقد وضع الجاحظ هذا الكتاب ليتندر على صاحبه احمد بن عبد الوهاب ويصف دمامة خلقه وقبح تركيبه مع دعواه انه جميل الصورة معتدل الخلق حسن التركيب : ثم يسأله الرد على مسائل تقرب فى جملتها من الخرافات والاساطير .

ومن كتب الجاحظ كذلك « تفضيل النطق على الصمت » و « العشق والنساء » و « الرد على النصارى » ومما نسب اليـــه ايضاً « كتاب التاج » الذى نشره احمد زكى باشا » وكتاب « المحاسن والاضداد » وكتاب « تهـــذيب الاخلاق » الذى نشره بدمشق محمد كرد على .

وقد عرض الجاحظ فى مؤلفاته هـــذه لجميع العلوم التى كانت شائعة فى عصره بحيث يصح أن تعتبر دائرة معارف لعلوم ذلك العهد . فنجد فيها رسائل فى الامامة وأخرى فى العـــلوم الدينية والكلامية وغيرها فى القصص والنوادر والوصف .

ولعل اغرب رسائله تلك التى وضعهـــا فى موضوعات متضادة مثل رسالة فى مـــدح النبيذ ، وأخرى فى ذمه ، ورسائلة فى ذم الكتاب (بتشديد التاء) وأخرى فى مدحهم ، ورسالة فى مدح الوراق وأخرى فى ذمهم . مما جعـــل ابن قتيبة يقول انه « احسنهم (يعنى المتكلمين) للحجة استثارة ، واشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشىء ونقيضـــه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، ويحتج

مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ٠٠٠» ويلته ابن قتيبة من هذا بقوله » وتجده يقصــد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، ويريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ويستهزىء من الحــديث استهزاء لايخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان ٠ ٠ ٠ وهو مع هــذا من اكذب الأمة واوصفهم لحديث وانصرهم لباطل » ؛

ويجب الا نقف طويلا عند ما قاله ابن قتيبة فى الجاحظ لأنه كان من الناقمين عليه الذين يحصون مثالبه ويعدون اخطاءه ؛

ولعل خير ما نختم به الحديث عن مؤلفات الجاحظ القصة التالية :

جرى ذكر الجاحظ فى مجلس الاستاذ ابى الفضل بن العميد فغض منه بعض الحاضرين وازرى به.وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قال بعض الجلوس لابن العميد : « سكت ايها الاستاذ عن هذا الرجل فى قوله مع عادتك فى الرد على امثاله » فقال ، « لم اجد فى مقابلته ابلغ من تركه على جهله ، ولو وافقته وبينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك انسانا ؛ فكتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا : ولم استصلحه لذلك » ؛

وكفى بكلام ابن العميد شهيداً على فضل الجاحظ وعلمه ونفاسة كتبه ؛

أشار جميع الذين أرخوا للجاحظ الى أنه كان متهما فى دينه ، وأن له فى الدين آراء خاصة . ومن المعروف أنه كان للجاحظ أعداء كثيرون ، وأنهم نسبوا اليه طائفة من التهم لا سبيل الى تحقيقها ، وقد ذكرنا من قبل كيف إنه لما قبض عليه رجال احمد بن ابى داؤد القاضى ومثلوه بين يديه قال له : قبحك الله ، ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ، ثم اصطنعت فيه النفاق والكفر ، ثم قال عنه لجلسائه « أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » . وأشرنا الى ما رواه الازهرى عن ثعلب أنه قال عنه « أعدلوا عن ذكر الجاحظ فانه غير ثقة ولا مأمون » ونضيف أن ثعلب قال عن الجاحظ أيضاً أنه : « كان كذابا على الله وعلى الرسول وعلى الناس » وقال أبو الفرج الاصبهانى أن الجاحظ كان يرمى بالزندقه . وروى عنه القصة التالية :

قال أبن ابى الدنيا المحدث : حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ : فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : انى ماصليت لمذهب أو لسبب اخبرك به . فقال له : ما أظن ان لك مذهبا فى الصلاة الا تركها .

وأخيراً روى الشهرستانى أن أحدهم سأل الجاحظ عن كيفية خلق القرآن فاجابه : «خلق القرآن كما خلق الرجل والمرأه والبقرة ، وكل حيوان ذكراً كان أو أنثى . » وعلق الشهرستانى على ذلك بان الجاحظ كان يعتقد «أن القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا » .

وقال المؤرخون أنه كان للجاحظ مذهب خاص نسب اليه عرف بالجاحظية

ولكن جميع كتبه التى أنتهت الينا خلت من اشارة الى هذا المذهب. فاما ان تكون الكتب التى شرح فيها مذهبه قد فقدت أو انه تحاشى البحث فى الدين خوفا من نقمة العامة ، أو أنه أعدم كتابه فى عهد المتوكل خوفا من بطش الخليفة ويرى الاستاذ البستانى أن « الجاحظ لم يكن من الجلد على جانب كاف بحيث يتعب نفسه فى تنسيق كتاب فلسفى وتبويبه بطريقة منطقية ، ونحن نعرف اسلوب الجاحظ فى الكتابة وعبثه الدائم بالترتيب والتقسيم : » ولكن هذا السبب مردود بان الجاحظ عرض فى كتبه لموضوعات فيها كثير من الجد مثل علم الحيوان فى كتاب الحيوان والادب والبلاغة والشعر فى البيان والتبيين ، وهو وسط الفوضى الشائعة فى مكتبه كان يجول جولات فكرية صادقة . على أنه ذكر أن للجاحظ كتابا بعنوان « فضيلة المعتزلة » وهو الذى رد عليه ابن الراوندى فى كتاب اسماه « فضيحة المعتزلة » :

و الارجح أن الجاحظ شرح عقيدته الدينية فى بعض كتبه ثم فقدت هذه الكتب كما فقد الكثير من كتب المعتزلة ، ولولا ذلك فمن اين استخلص الشهر ستانى والبغدادى وابن الراوندى أراء الجاحظ ومعتقداته ؟

وقد أجمع المؤرخون على أن الجاحظ كان من المعتزلة ، وتعد المعتزلة صفحة طريفة فى تاريخ التفكير العربى أبتدأت مستندة الى تفكير عربى محض ثم أخذت تتسع تحت تأثير نقل كتب الفلسفة واستفادة علماء الدين بها مما أدى الى تطور علم الكلام ؟

وعلم الكلام فى تحديد موجز هو اقتباس التفكير الفلسفى للعلوم الدينية فى الاسلام . وقد نشأت المذاهب منذ قيام الخوارج وتعددت أصحابها ؟ ولكن مذهبا من تلك المذاهب لم يصل الى الخطر الذى بلغته المعتزلة ، وقد حفظت آراء اصحاب هذا المذهب فى الكتب التى الفت للرد عليهم مثل كتاب « الملل

والنحل » للشهرستانى » وكتاب « شرح المواقف » للجرجانى » وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى :

ويروى عن نشوء هذا المذهب أنه بينما كان الحسن البصرى (٢١–١١٠هـ) فى مجلسه بمسجد البصرة دخل عليه رجل فسأله ، « ياأمام الدين ، لقد ظهر فى زماننا هذا جماعة يكفرون اصحاب الكبائر ، وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر ويرون انه لا تضر مع الايمان المعصية ، ولا تنفع مع الكفر الطاعة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا » ففكر الحسن فى هذا السؤال مليا ، وقبل أن يجمع رأيه على قول يجيب به بادر واصل ابن عطاء بالجواب وقال : « أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو منزلة بين منزلتين : »

فغضب الحسن لتسرع واصل بن عطاء بالجواب وجرأته فى الاجابة عنه ، فقام واصل فى جماعة معـه عن الجلسة وجلس بهم الى اسطوانة بالمسجد وأخذ يفسر رأيه ويشرح علله وأسبابه الى الذين شايعوه :

وكان واصل هذا متكلما وعالما بعيد الغور راسخ القدم فى العقليات ، وهو على ما رأيت شيخ مذهب المعتزلة . وقد اشتهر فيما عدا علمه واعتزاله بانه كان يلتثغ بالراء فيجعلها غيناً فكان يتجنبها فى كلامه مع اشتهاره باطالة الخطب : وللادباء فى ذلك شعر كثير حتى صار مضر بالمثل . قال بعضهم :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفه   وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطراً والقول يعجبه   فعاد بالغيث اشفاقاً من المطر

وقال آخر :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما   تجنب ابن عطاء لفظة الراء

أما سبب تسمية هذا المذهب بالمعتزلة ففيه أقوال تعود الى « اعتزال »

واصل وجماعته مجلس الحسن البصرى : وقد اطلقت على المعتزلة اسماء شتى وفاقا لغاية اصحابها منها « القدرية » و « المعطلة » وكانوا هم يطلقون على أنفسهم اسم « أهل العدل والتوحيد » . وقد انقسمت المعتزله الى فرق تختلف حسب فهم أصحابها لاصول الدين ، وكل فرقة تنتسب الى احدائمتها . فنها أتباع واصل بن عطاء ، وفئة تتبع ابى الهذيل العلاف البصرى ، واتباع النظام ، وهو استاذ الجاحظ .

وكان النظام هذا — وهو ابو الاسحق ابراهيم بن سيار بن هانىء النظام (١٥٨ — ٢٢١ هـ) — متكلما وشاعراً وأديباً ، بليغ اللسان ، حاد الذهن ولعله كان أقوى المعتزلين بادرة واعمهم تفكير ، وكان الجرجانى يسميه هو واصحابه بشياطين القدريين . طالع كتب الفلسفة فاقتبس آراءها وتفكيرها فى تدعيم مبادئه وتقوية مذهبه . وهو الذى علم الجاحظ مبادىء المعتزلة وشرح له كتب الفلسفة وبين له طرق التفكير والتمحيص ، ولم يلبث الجاحظ أن أصبح ذا مذهب خاص فى الاعتزال نسب اليه ، وهو « الجاحظية » ولكنه لم ياق من المشايعين والانصار مالقى غيره . ولعل طبيعته كانت تنأى به عن مثل هذه الزعامة .

أما المبادىء التى بنى عليها الجاحظ مذهبه فقد بينها ابن الروائدى والشهرستانى والبغدادى ، ونقلها عنهم حسن السندوبى ، وهى تلخص فيما يلى :

١ — المعارف كلها ضرورية ، وليس شىء منها من افعال العباد ، وانما وقعت لهم طباعاً وليس لهم فيها اختيار على الحقيقة ، انما تنسب اليهم على انها وجبت بارادتهم ، فانه ليس للعبد كسب سوى الارادة .

٢ — ليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى .

٣ — الكفار بين معاند وبين عارف استغرقه حبه لمذهبه ، فهو لا ينكر

ما عنده من المعرفة بخالقه وبصدق رسله .

٤ ــ محال أن يعدم الله الاجسام بعد وجودها، وان أوجدهابعدعدمها . ولا يمكن البتة اخفاؤها الا أنه يفرق اجزاءها فقط . فالاعراض تتبدل والجوهر يستحيل عليه الفناء

٥ ــ ليس للارادة أصل ولكنها جنس من الاعراض اذا انتفى السهو عن الفاعل .

٦ ــ جائز أن يوصف الله تعالى بانه مريد ، بمعنى أنه لايصح فى حقه السهو فى افعاله ولا الجهل بها ولا يجوز أن يغلب أو يقهر .

٧ ــ أن الله لايدخل النار أحداً وانما النار تجذب أهلها اليها بطبيعتها ، ثم تمسكهم فيها على الخلود . وليس معنى الخلود أن يصلوا فيها عذابا أبداً وانما يصيرون الى طبيعتها ؛ ويعنى بذلك أن الخلود من حيث الاقامة لامن حيث العذاب :

٨ ــ أن للاجسام طبائع وافعالا خاصة بها .

١٠ ــ أن الخلق من العقلاء عالمون بان الله تعالى خالقهم ، وعارفون بأنهم محتاجون الى النبي ، وهم محجوجون بمعرفتهم . وهم صنفان : عالم بالتوحيد وجاهل به فالجاهل معذور والعالم محجوج .

١١ ــ أن من دان بالاسلام وجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة يرى بالابصار ، وانه عدل لايجور ، وأنه لايريد المعاصى .

وقد أغتنم اعداء الجاحظ ، وهم كثير بين حاسدونا قم ، انتسابه للمعتزلة لشن هجوم عنيف عليه. وقد روينا بعض ماقاله ابن قتيبة عنه . أما البغدادى فقد ذهب الى أبعد حد فقال : « ولو عرفوا جهالاته فى ضلالاته لاستغفروا الله تعالى

من تسميتهم أياه انسانا ، فضــلا عن أن ينسبوا اليه احسانا » وقال فى موضع اخر : ومن افتخر بالجاحظ سلمنا اليه قول أهل السنة فيه كقول الشاعر :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان الادون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه وهوالقذى فى كل طرف لاحظ

ولقد وجه أولئك العلماء حملتهم العنيفة الى الجاحظ لانهم وجدوه أقوى شخصية بين المعتزلة واقربها الى روح الجماهير فشاؤوا أن يشوهوا سمعته من ناحية الدين ، ويقال انهم نسبوا اليه مزاعم هو براء منها ولذلك انبرى للدفاع عنه ادباء نذكر منهم أبا الحسن الخياط فى كتابه «الانتصار». وكان اخر من حاول الدفاع عن عقيدة الجاحظ حسن السندوبى فى كتابة « أدب الجاحظ » ووصفه المستشرق الفرنسى « كاراد دى قو » بانه كان من أصحاب التفكير الحر (١)، وهذا التعبير الفرنسى يعنى الجحود والانكار أكثر مما يعنى الايمان .

---

(1) libre renseur

أن استخلاص اراء الجاحظ فى الحيـاة والاجتماع والاخلاق والأدب من كتبه اسهل من معرفة عقيدته لأن الجاحظ كتب فى هـذا جميعه وإن يكن قد اغرقه فى بحر من التندر و الاستطراد . من ذلك أننا أن نجد له حديثا فى الامامة ، وهو من هـذه الناحية قد مس مسألة من ادق المسائل ، والجاحظ واسع الاطلاع على مختلف الآراء فهو يعـرضها خالطا الجد بالهزل ، لذلك رأيناه فى بحثه فى الامامة يدرس شتى الآراء وينتصر لهـا جميعا معا ؛ فينتصر تارة للعثمانية وطوراً للزيدية ، ويقر أمامة بنى امية حينا ويفضل عليهم بنى العباس حينا آخر بحيث يصعب الوقوف على رأى خاص به ؛

والجاحظ ينتصر للعرب على الشعوبية ولكنه لا ينكر فضل الموالى و حقهم؛ ونراه فى رسالته فى فضـائل الترك يستحسن اشراكهم فى السياسة الإسلامية وإدخالهم فى الأمامة .

ونجده فى « رسالة فى فخر السودان على البيضان » يتحدث عن الزنوج وابطالهم وحروبهم ويروى نوادرهم مما يدل على شديد اهتمامه بنفسية الشعوب ودراستها . وهو يقرر فى رسالته فى فضـائل الترك أن كل أمة وعصر وجيل وشعب برز فى بعض الفنون ، ويقول أن اهل الصين يمتازون بالصنائع ، والأغريق بالفلسفة والأدب ، والفرس بالسياسة والملك ، والترك بالحرب ، والعرب بالشعر والبيان وعلم الاهتداء بالنجوم ومعرفة الأثر بتتبع مواقع الخطى ؛

وقد دل الجاحظ على نظر صادق واختبـار دقيق وملاحظة قوية فى درسه لأخلاق الأفراد والطبقات وبيان شذوذهم وسرد حكاياتهم وتصوير نقائصهم فى اسلوب فكه ومداعبة رقيقة وتهكم لاذع ؛ لذلك نستطيع أن نقرر أن

الجاحظ كان أول من أدخل على ادابنا العربية فن التندر بحكايات الأفراد والطبقات :

ويرمى الجاحظ من وراء هذا إلى تنبيه العامة وتحذيرها من الوقوع فى حبائل بعض الطبقات ، كما يرمى الى اصلاح الأفراد بواسطة الكشف عن النقائص : ففى « غش الصناعات » يكشف الجاحظ عن حيل المكدين و يهتك الستر عن خزعبلات المتسولين ، وفى رسائله عن « الفتيان » و « الجوارى والغلمان » و «المغنين » و « القيان » يدرس اخلاق هؤلاء جميعاً ذكوراً وأناثا ، ولا شك أن خير كتبه فى هذا الصدد هو كتاب « البخلاء » الذى عرضنا له من قبل :

٥ ٥ ٥

أما فى الأدب فللجاحظ اراء شتى نجدها متناثرة فى الكثير من كتبه، وبنوع خاص فى « البيان والتبين » الذى عرضنا له من قبل : ونجد فى الفصل الأول من كتاب الحيوان اراء مختلفة فى الكتب والكلام والكتابة والخط والترجمة والشعر إلى غير ذلك :

يرى الجاحظ مثلا أن الترجمة الامينة ضرب من المحال لأن « الترجمان لا يؤدى ابداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده : ولا يقدران يوفيها حقوقها ... وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها ... الاانيكون فى العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ، فمتى كان، رحمه الله، ابن البطريق وابن ناعمة وابوقرة وابن وهيلى وابن المقنع مثل ارسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل افلاطون » .

وهو يقـول باستحالة التوازن بين المترجم والمترجم عنه لأنه يتطلب من من المترجم أن يعرف اللغتين إذ « ينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء غاية » ولكن متى وجـدناه (أى الترجمان) قد تكلم بلسانين علمنا أنه « قد ادخل الضيم عليهما لأن كل واحـدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها » لذلك يتسائل الجاحظ « كيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه (اى الترجمان) كتمكنه إذا انفرد بالواحدة . وإنما له قوة واحدة، فان تكلم بلغة واحدة استغرقت تلك القوة عليها » ...

أما الشعر فهو عنده حديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعـة ، وكتب ارسطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليموس وبقراط قبل بدء الشعر بالدهور قبـل الدهور والاحقاب : فاذا استظهرنا الشعر وجدنا له ، الى أن جاء الله بالإسلام ، خمسين ومائة عام » ...

والحق أن المطالع لا يملك أن يكتم ابتسامته لدى مطالعة مثل هـذا القول ، كان الشعر لم يوجد عند غير العرب ، وكان العالم لم يعرفه قبل امرؤ القيس : والجاحظ يعتقد مخلصاً أن « فضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب » :

ويرى الجاحظ « أن الشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه ، وذهب حسنه وسقط موضع العجب منه وصار كالكلام المنثوره والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، احسن وأوقع من المنثور الذى حول عن موزون الشعر » :

ومادمنا فى الحديث عن الشعر فلنذكر أن للجاحظ فى العروض والشعر رايين متناقضين ، ولا عجب فهو الذى كان ولوعاً بهذا التناقض فى الرأى . قال

« العروض ميزان الشعر ومعياره ، وبه يعرف الصحيح من السقيم ، والمعتل من السليم » والقريض من الشعر ، وبه يسلم من الأود والكسر » ثم قال فى موضع آخر « العروض علم مردود ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول يستكد العقول بمستفعل ومفعول ، ومن غير فائدة ولا محصول » :

وقد نظم الجاحظ الشعر فى المدح والهجا ولكنه لم يمارسه إلا لأنه رأى فيه وسيلة للتكسب والتقرب من الخلفاء والوزراء ونكتفى للدلالة على شاعريته الضعيفة ببيتين قالها فى الخضاب وفيها دعابة من دعاباته المعهودة قال :

أن حال لون الرأس عن حاله   ففى خضاب الرأس مستمتع
هب من له شيب له حيلة   فما الذى يحتاله الاصلع

⁂

أما طريقة الجاحظ فى التأليف فقد عرضنا لها اكثر من مرة فى هذه الدراسة فاشرنا إلى كثرة الاستطراد وتدخل الأبواب فى بعضها البعض ، وقلة دلالة العنوان على موضوع الفصل ، واندفاعه الى الانتقال من موضوع الى آخر ومن حكمة الى شعر ، ومن آية الى نادرة ... فاذا تساءلنا عن الدافع الذى حدا بالجاحظ الى هذه الطريقة الغريبة أجاب بأنه يخشى ملل المطالع وسأمه فهو ينتقل به هكذا ليشحذ همته ويبعث فى عزمه . ولعل هذا الجواب غير مقنع لمن درس شخصية الجاحظ . فالتنقل كان ظاهرة عقلية فيه لأنه كان بطبيعته محدثا فكها ونديما لا يمل مجلسه . ومن خصائص الأحاديث الاستطراد من موضوع الى موضوع ، والأخذ بشتى الاقوال والآراء والانتقال من شعر الى فكاهة ...

والجاحظ كان يكتب كما لو كان يتحدث . تأتيه معانيه عفو الخاطر فيسجلها ، وإنما يعنى باللفظ والاسلوب . وهو الذى قال فى كتاب الحيوان أن

المعانى مطروحة فى الطريق يلتقطها كل عابر ، وأن فضل الكاتب فى تخير اللفظ وجودة التعبير .

وكذلك كان فضل الجاحظ فى اسلوبه . وهو لم يكن كاتبا كبيراً من حيث اناقة العبارة وجودة اللفظ وحسن السبك فحسب ، بل كان ايضاً مجدداً ، ويعود اليه الكثير من الفضل فى السهولة والمرونة اللتين وصلت اليهما الجملة العربية .

كانت الجملة قبل الجاحظ طويلة تسير متثاقلة ، وكان الانشاء مرسلا بلا سجع ولا تقطيع كما هو فى كتاب كليلة ودمنة ، أو أنه مسجع منوع العبارة تنويعاً خاصاً انيقا منمقاً كما تجده فى كتاب « الدرة اليتيمة » و « الأدب الصغير » . والكتب الثلاثة لأبن المقفع الذى كان أمام الكتاب وزعيمهم فى عصره .

فلما جاء الجاحظ رأى ما فى هذه العبارات من التكلف ، وما فيها من التباطؤ والثقل مما لا تحتمله نفسه الخفيفة فعمد الى تقصير الجمل وتقطيعها من غير أن يتقيد فيها بحجم ، أو بوزن ، اذا صح اطلاق هذا التعبير على تساوى الجمل النثرية ، أو بقافية ، فأكسبها مرونة وجعلها سهلة قريبة الفهم والمتناول. هذا الى تكرير المعنى المقصود بكلام مرادف للسابق بحيث يجعل المعنى اكثر رسوخاً فى الفهم وقربا من الذهن وابلغ اثراً فى النفوس .

وقد عرف الاوائل فضل الجاحظ فجعلوه فى منزلة الزعامة . واذا انكر بعضهم فضله فللضغينة فى النفس ، أو بتأثير عقيدة الجاحظ . ويكفى أن نشير الى قصة الوزير ابن العميد مع الرجل الذى حضر مجلسه وذم فى الجاحظ التى ذكرناها من قبل لنعرف المجد الذى اصابه الجاحظ فى ذلك العهد .

أما فى القرن الماضى فقد ظل الجاحظ مجهول المقام الى أن كان مطلع هذا

القرن ، عندما اخذت الناشئة الجديدة بدرس الأدب العربى القديم فى تمحيص واعمال فكرة . وكان الأسلوب قد أخذ سمته نحو التخلص من التقليد والتطور ليتسع للمعانى العصرية ، فكان الجاحظ ومن جاء بعده وحذا حذوه القدوة التى اقتدى الأدباء بها :

أما اليوم فيجب أن ندرس الجاحظ من حيث انه كان مجدداً فى عصره ، ولعل العمل الذى قام به الجاحظ فى النثر شديد الشبه بما فعله بشار وأبو نواس فى الشعر وقد جدد الجاحظ فى الأسلوب والدعابة والنقد والتهكم ، وكان واسع الاطلاع غزير المادة محيطًا بعلوم عصره جريئا فى التطوير ، فلا غرو اذا اصبح شيخ الكتاب وزعيم المترسلين ،

السيد محمد توفيق
البكرى

قليل من الأدباء من يذكر اليــوم السيد محمد توفيق البكرى الذى كان فى العشر سنين التى انقضت بين أواخر القرن الماضى وأوائل هــذا القرن من أدباء العربية المعدودين ، ومن سادة مصر الأمجاد، ومن الشخصيات العربية المرموقة ؛ فكان ذكره على كل الالسن وأدبه فى كل الأذهان ؛ ثم أصابه من غير الزمان ما أصاب ، فابتعد عن مصر للاستشفاء ، فلم ينقض العام أو العامان حتى تناسى المعجبون به ذكراه ؛ ولما عاد الى مصر كان أصدقاؤه قد تفرقوا والمعجبون به القدامى قد تغيرت نظرتهم الى الأدب ولما نعى لم يحفل الادباء كثيراً بمنعاه . وفى هذا الدليل على تقلب الأحوال وتباين الأغراض واختلاف المذاهب والأذواق .

وإذا اعدنا اليوم الى الذاكرة اسم السيد محمد توفيق البكرى فلأنه يمثل عهداً قد زال ، ولونا من الادب قد انقرض ، واشترك فى أحداث لا أثر لها اليوم ولأنه دخل التاريخ من هذه الأبواب :

يمت السيد محمد توفيق البكرى بنسبه الى أبى بكر الصديق ، كما يدل على ذلك اسمه أسرته ؛ وكان أول من دخل مصر من هــذه الأسرة الشريفة محمد بن أبى بكر الذى عينه واليا عليهــا الامام على ، فقتله رجل من دعاة بنى أمية ؛ ثم رحل إليها نفر من ولد عبد الرحمن بن أبى بكر وأستطونوها فى القرن الأول الهجرى ؛ وانتقــل أفراد من رجال البيت البــكرى المصرى الى الشام واستطنونوا دمشق ؛

أما الوظائف العالقة التى كانت وقفاً على هــذا البيت فثلاث هى مشيخة السجادة البكرية ، ومشيخة المشايخ الصوفية ، ونقابة الاشراف ؛

وقد ولد السيد محمد توفيق البكرى يوم الجمعة ٢٧ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٢ م) وقرأ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العربية فى منزل والده حتى اذا كبر أدخل المدرسه العلية التى أنشأها الخديو توفيق لتعلم أنجاله واذن بأن ينتسب إليها أبناء وجهاء القطر وكبار رجاله . فتلقى فيها محمد توفيق مبادىء العلوم النقلية والعقلية ودرس اللغات التركية والفرنسية والانجليزية ، وامتاز بالنجابة الفائقة بين أقرانه ، وكان أولهم . ولما ابطلت هذه المدرسة سنة ١٨٨٥ عكف محمد توفيق على الدرس والتحصيل على أيدى مهرة الاساتذة واجتاز امتحان البكالوريا بتفوق فكان أول الناجحين سنة١٨٨٩ ، ثم تقدم الى الازهر فأجازه شيخه ، وكان أيامئذ الشيخ الانبابى ، بعد أن قرأ عليه « رسالة الأوائل ، ونبذة من الأصول والفقه والحديث والتفسير ، وطرفا من العلوم العربية كالنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، مع جودة الالقاء ، وحسن التوضيح والتقرير » .

وكان أن توفى الشيخ عبد الباقى البكرى شقيق السيد محمد توفيق سنة ١٨٩٢ ،وكان يتولى المشيخة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفيةونقابة الاشراف، فولاه الخديو عباس عليها فى حفل كبير أقيم بقصر عابدين.وقد سر بهذا التعيين علماء مصر وأدباؤها لما كانوا يرجونه من خير واصلاح على يدى الشيخ الجديد بالرغم من حداثة سنه . وقد هنأه شعراء كثيرون منهم الشيخ حمزة فتح الله فقال من قصيدة :

انا نهنى المكرمات وأهلها بمليكها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكرى فرع أرومة الـ صديق زهرة دوحة الزهراء
والعالم النحرير والعلم الذى أحيا رسوم المجد والعلياء

وفى شهر مايو من ذلك العـام ١٨٩٢ عينه عباس عضواً فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ثم أنعم عليه — كما كان يقال فى لغة ذلك العصر — بكسوة التشريفة وبالنيشان المجيدى الثانى .

وسافر السيد محمد توفيق البكرى فى ذلك العـام الى أوربا ، فقصد الى انجلترا حيث اجتمع باللورد سالسبورى فى وزارة الخارجية البريطانية ، ثم زار فرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا والمجر فتعرف الى طائفة من مشاهير رجال السياسة والعلم والادب .

وقصد البكرى بعد ذلك الى اسطنبول حيث قوبل بالحفاوة البالغة وقابل — أو ، كما كان يقال ، حظى بمقابلة — السلطان عبد الحميد الذى كلفه حمـل رسالة الى الخديو عباس وقال له عند انصرافه : « لقد صرت من الآن ابني » وقد أشار البكرى الى هذه المقابلة فى كتاب « صهاريج اللؤلؤ » حيث قال :

« أما أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، فقد دعانى الى حضرته ، والقرب من سدته ، وبلغ من حسن اللقيا ، وكرم المثوى ، مالو اعطيت لسن النابغة فى النعمان ، وزهير فى هرم بن سنان ، لما قمت بحق الشكر ان . فأى در أنثر ، وأى مديح أذكر ، وقد جل المقام عن المقال ، وترفعت الحقيقة عن الخيال » .

ويقول السيد البكرى أنه دعى أكثر من مرة لمقابلة السلطان ، وأنه فى إحدى هذه المقابلات قلده النيشان العثمانى الاول ، ومنحه رتبة الوزارة العلمية ، وهى قضاء عسكر الانا طول ، فى حين كان لا يزال السيد فى الثانيـــة والعشرين من عمره .

وعقدت صحيفة «المؤيد» أيامئذ فصلا طويلاً فى تهنئة السيد البكرى وشرح

الرتبة التى أنعم بها عليه ونحن ننقل لبذة من ذلك الفصل للتاريخ: قالت :

« هى من أقدم رتب الدولة العلية ، بل يمكن أن يقال أنهـــا تأسست مع تأسيس الدولة العلية العثمانية . وذلك أن السلاطين الاولين من ال عثمان لما كان نصب أعينهم الجهاد واعلاء كلمة الله بين العباد و تأسيس مملكة وملك عظيم ... جعلوا قاضيا مخصوصاً يقضى فى معسكرهم خلاف الحواضر والمدن ، وذلك لكثرة تنقلاتهم واستمرار وجود الجيش العامل تحت السلاح . ولمـا انتظم أمر السلطنة السنية وفتحت القسطنطينية سنة ٨٥٨ هـ صارت المملكة مؤلفة من قسمين عظيمين أحـدهما بأوربا ويعرف بالروم ايلى ، والثانى باسيا ويسمى باناضول . ولكل منهما جيش قائم لاستمرار الحروب فى كلا الطرفين . وقسم السلطان ابو الفتح الغازى محمد خان الثانى وظيفة عسكر الى قسمين سمى كل منهما باسم القسم التابع إليه الجيش...ثم بتوالى الأيام صارت هذه الوظيفة رتبة اسمية تعطى لكبـــار العلماء ولا يتولى الوظيفة بالفعل الا اثنان منهم كل سنة . وهى تعادل من الرتب الملكية الوزارة السامية . ومن الرتب العسكرية المشيرية الجليلة ... »

ولما عاد السيد البكرى الى مصر اخذ فى سبل الحياة فيها قائما بأعباء المناصب العديدة التى ألقيت إليه مقاليدها . ولكن العهد كان عهد وشايات ، وتنافر وتجاذب بين العميد البريطانى ـ وكان كرومر ـ وبين الخديو عباس ، وكان على أصحاب المناصب الرفيعة أن يوازنوا بين النفوذين ويفوزوا برضى الجهتين . ولعل السيد البكرى لم يوفق الى ذلك تماما ، فسعى الوشاة به لدى عباس لموقف وقفه فى فى مجلس شورى القوانين خاص بترتيب مبلغ من المال للازهر يجرى على علمائه ، فاستقال البكرى من نقابة الاشراف فقبـل عباس استقالته فى

الحـال ولكنه عاد فرضى عنه وانعم عليـه بالمداليتين الذهبية والفضية سنة ١٨٩٧ ، وبمدالية اللياقة الذهبية سنة ١٩٠٠ ، وأعاد إليه نقابة الاشراف سنة ١٩٠٣ .

وكان السيد محمد توفيق البكرى يأخذ قسطه من الحياة العامة فى ذلك العهد المضطرب . فقد وجه عنايته من ناحيته الى تنظيم الطرق الصوفية ووضع لها لائحة استصدر بها مرسوماً . وقد تحدث البكرى عن ذلك فقال :

« توليت مشيخة المشايخ الصوفية وأمرها فوضى لا نظام يربطهـا ، ولا قانون يضبطها فاستصدرت لهـا لائحة رسمية متوجا بأمر خديوى مؤرخ سنة ١٣٢١ هجرية ، فأصبحت بها أشبه بحكومة منظمة وادارة مقومة . ثم رسمت بوضع كتاب اسمه « التعليم والارشاد ليستنير به المشايخ الصوفيه وخلفائهم فى تربية المريدين وارشاد السالكين » وطبعته ووقفته لله تعالى : »

واشترك السيد البكرى فى الحياة السياسية ورفع صوته مطالبا باستقلال مصر الادارى ثم استقلالها السياسى فى رسالة نشرها فى صحيفة « التيمس » فى مايو سنة ١٨٩٣ . ولمـا جاء ولى عهد بريطانيا الى مصر سنة ١٩٠٦ ، وكان وقتئذ الذى أصبح فيما بعـد الملك جورج الخامس ، كتب السيد البكرى فى « المؤيد » خطابا موجها الى ضيف مصر لفت فيه نظره الى المسألة المصرية :

وقال بعض مؤرخيه أنه أيامئذ « أخذ صوته يرتفع شيئاً فشيئاً حتى بلغ المدى وحتى قيل أن هذا كله أثر فى أعصابه وقواه العقلية » ولعـل أعصاب السيد البكرى لم تكن لتتحمل الهزات العنيفة التى تعرضت لها فى مواقفه تلك سواء من ناحية الدائر البريطانية أو الدوائر المصرية ، فأرسل الى مستشفى العصفورية فى

لبنان ، وقد أقام السيد محمد توفيق البكرى فى هذا المستشفى سنين طويلة حتى كاد الناس ينسونه ، خصوصاً بعد أن شغلوا بالحروب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر وقيـام ثورة سنة ١٩١٩ وما تلاها من احداث . ولكن سليم سركيس ، صاحب مجلة « سركيس » ، وكان من أصدقائه القدامى سافر الى لبنان بعـد الحرب العالمية الأولى وزار السيد محمد توفيق البكرى فى المستشفى ولما عاد الى القاهرة قال أن السيد قد شفى تماما وطالب بعودته وأثار ضجة حول اقامته فى العصفورية . ولكنه لم يعد الى مصر الا سنة ١٩٢٨ .

وقد احتفت الصحف بعودته ولكنه كان قد اسن وشاخ فعاش منزويا حتى توفى الى رحمة ربه فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٢ .

كان السيد محمد توفيق البكرى أديبـا من كبار أدباء عصره توافر لدراسة الادب منذ حداثته وخصه بعنايته ، وقد قال فى ذلك : « أما العلم فقد اختصصت منه بعلم الادب ، والاختصاص سر النجـاح لأن العلم يعطيك من نفسه بقدر ما تعطيه من نفسك ، ثم أخذ من الفلسفة بقدر لأنه يعرف قول شوبنهور أن « الآدب والفلسفة نهاية ما ترقى إليه المدارك الانسانية » . وقد قال السيد البكرى فى « صاريج اللؤلؤ » فى وصف بعضهم :

« شاعر الا أنه فيلسوف وفيلسوف الا أنه شاعر ، فكره عالم الحقيقة والمثال ، لأن الفلسفة شعر الا انها حقيقة ، والشعر فلسفة غير أنه خيال »

ولعل السيد البكرى نظر الى نفسه حين وصف صاحبه بما وصف .

ويظهر أدبه خاصة فى شتى كتبه ، وهى عديدة ، نذكر منها :

١ — كتاب « أراجيز العرب » عرض فيه لأشهر الاراجيز فاختار انفسها رشرحهـا في افاضة لأنه يعتقد أن « شرح الاراجيز والوقوف على فحواها من أصعب ما ترمي إليه الأفكار وتشف عنه الأنظار » وقد بلغ غايته مما أراد حتى نال كتابه أعجاب أدباء العصر فقرظوه مثنين على مؤلفه فقال على باشا رفاعة

منها خذوا أوفى نصيب وفر   قد شرحت ما كان شبه الجفر
نوراً كزهر وشـــذاً كزهر

وقال الاستاذ الاكبر الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر أن الكتاب « أول دليل و أعظم برهان على فضل مؤلفه علامة الزمان » .

٢ — كتاب « فحول البلاغة » وضعه للناشئة من طلاب الادب . وقد قال في خطبته « أنه كالنقطة الصغيرة من العطر » محصل بجملة كبيرة من الزهر » :

٣ — كتاب « بيت الصديق» اشارة الى أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين الذي ينتسب إليه السيد محمد توفيق البكري . وقد روى فيه أخبار هذا البيت الكريم منذ نشأته في الجاهلية الى اليوم » وارخ للنابغين من رجاله ، وترجم فيه لنفسه . وقد اعتمدنا هذا الكتاب في بعض ما رويناه من ترجمته :

٤ — كتاب « بيت السادات الوفائية » وهو تاريخ هـــذه الأسرة الشهيرة بمصر وكان السيد يسعى الى توثيق الصلات بين الاسرتين البكرية والوفائية ،وقد تزوج من أسرة السادات :

٥ — « مستقبل الاسلام » وهو سفر صغير يقع في ٤٨ صفحة وصفه مؤلفه بأنه « قليل الحجم لمن نظر ، جم الفوائد لمن افتكر واعتبر » :

٦ — كتاب « صهاريج اللؤلؤ » وهو عنوان فخر السيد وذخره الباقي في

الشعر والأدب ، وإليه يرجع كل من يريد أن يدرس أدبه ويكون فكرة شاملة عن علمه وتفكيره وخياله وأسلوبه :

جمع السيد البكرى فى هذا الكتاب فصولا متفرقة واشعارا مختلفة يظهر انه كتبها تحت تاثيرات مختلفة بعضها فى مصر مثل فصل «العزلة» ، وبعضها فى غضون رحلته الى اوربا أو عقب عودته منهـا ، ومنها « القسطنطينية » و « نابليون » و « الفنزج أى البالو » و « غابة بولونيا » الى غير ذلك . وفى الكتاب قصائد فى وصف مصر ومدح عباس ورثاء والده :

ويقول السيد محمد توفيق البكرى فى وصف كتابه انه ضمنه « نخبا من الحكم ، واقاويل من جوامع الكلم ، وذكرى من مغربة الأخبـار ، ونعوتا لبعض الاناسى والآثار ، ومثلات فى المواعظ والاعتبار ، وشعشعتها بانظار الجهابذة المتقدمين والحكماء المتأخرين ، كما تشعشع الراح ، بثغبان البطاح ، فجاءت بحمـد الله من البلاغة فى القرار المكين والركن الركين ، وقد التزمت فى اكثر عبار اتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وانا اعلم أن من الأدباء اليوم من ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هـذا الجيل : فلم يثنى ذلك عن أن أودع كلام الأعراب ، بهذا الكتاب ، واحذو فى أثر تلك الرفاق ، بما فى هذه الاوراق » :

صدر كتاب « صهاريج اللؤلؤ » سنة ١٩٠٦ مشروحاً شرحاً وافيا بقلم استاذين من جهابذة اللغة فى ذلك العهد هما الشيخ الشنقيطى والشيخ : ابو بكر محمد المصرى : وقد كتب الشيخ الشنقيطى مقدمة الكتاب وصفه فيها بأنه « كلم ليس مما تثنى اواخره على اوائله ، ويموت من قبل قائله ، بل يبقى على الاحقاب والأحوال ، بقاء الثريا فى جبين الليـال ، وبلاغة ترتفع عن مساجلة فضلاء هذا الزمان ، ومناظرة ادباء العصر والاوان ، وتلتحق بأشرف ما صنعه

بلغاء الدولتين : الاموية والعباسية ، وانفس ما وضعه فصحاء الفرقتين : المشرقية والاندلسية ... انه ما خط قلم من الاقلام ، منذ الف عام ، مثل هذا الكلام ، وهب أنه وجد فى متقدمى الشعراء من اتى بمثل هذا الشعر ، فأنى لنا من الكتاب من اتى بمثل هذا النثر ، ولو نظرنا فيما دونه البلغاء لالفينا أن من رزق اللفظ حرم المعنى ، ومن اجاد المفهوم لم يجد المبنى ، ومن احسن فى الشعر لم يحسن فى النثر ، ومن اتفق لهم بعض هذى الخصال ، حرموا قوة الخيال ، ومقـابلة الحقيقة بالمثال ، فلم يجتمع لأحد منهم ، ما اجتمع لهذا السيد الشريف من اركان البلاغة ، وأصول هذه الصياغة . فسبحان واهب القول والقـدر ، ومصور الأشباح والصور » :

هذا هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» كما اراده مؤلفه ، وكما اعجب به معاصروه؛ أما اليوم فقد نختلف فى التقدير من حيث الاسلوب ،

تعمد السيد البكرى فى كتابه هذا النثر المسجع ، واختيار البليغ من كلام العرب ، وأحيانا المهجور ، مما يقرب كتابه من بعض مقامات الحـريرى أو ما شبه ، واننا نورد امثلة نتناولها فى أول صفحة تقع تحت نظرنا من الكتاب لأنها كثيرة قال : « ووراء ذلك بطاح وتلاع ، أثأقتها من الاشراط اسمية تباع ، فأخرج حبهـا شطأه ، فاعجب الزراع بارضى رخميم ، وشميط عميم » ، وقوله فى الصفحة نفسها : « ونخيل ومواقير بالقنى ، من البرنى ، لاتزال الغربان واقعة على رطبه ، واكرة فى شذبه ؛ وشوع والاء ؛ وغريف واشاء » وارجو أن يعفينى القارىء من أن انقل له تفسير بعض العبارة عن شارحى الكتاب ..؟

ونجد هذا النثر المسجع يقوده احيانا الى تشابيه لا نستسيغها كثيراً ولا أظنها كانت تستساغ عند كتابتها مثل قوله : « وحسان غيد » كالاماليد ، فى وجوه كالدنانير ، وأوساط كاوساط الزنابير » وقوله : « وشعر كالليل ، أو اذناب الخيل » ؟

أما اليوم فقد اختلفت الاذواق عما كانت عليه فى القرن الخامس أو السادس للهجرة ، وصرنا لا نميل الى السجع ، حتى لو جاء عفوا لا تعمل فيه ولا تصنع ، وصرنا نعاف حوشى اللفظ الذى لا يتمشى ورقة الحاشية فلن نستعمل مثلا كلمة « الفنزج » للبالو بينما نستطيع استعمال كلمة مرقص ، والمرقص اعم لأن الفنزج نوع من الرقص للعجم يأخذ فيه الراقصون بعضهم بيد بعض . وهو مما لا يتفق والرقص الافرنجى الذى شاهده السيد البكرى فى فينا فى تلك الليلة التى وصفها :

وان هذا النوع من الكتابة يتعب المطالع ويحمله على السأم والملل . وبعض الاسجاع لا ارتباط لها بالبعض الآخر . وهو مضطر ابداً الى البحث عن معنى الكلمة فى الشرح . وشرح كتاب « صهاريج اللؤلؤ » اضعاف اضعاف الاصل : والكتاب يقع فى ٣٨٨ صفحة من الحجم الكبير ، ولو لا الشرح لما اتسع لاكثر من خمسين صفحة :

ولعل غرابة الأسلوب هذه هى التى حدت بالادباء الى تناسى الكتاب ، وتناسى مؤلفه بعد أن باعدت بينه وبينهم الأيام : وهذا الذى حدا بالمازنى الى القول بأن « ادبه قد مات فى حياة صاحبه » : والحق انه كان باستطاعة السيد البكرى ان يتحاشى هذا اللفظ المهجور ، وان يصدف عن اللفظ الغريب ، ويقلل من الالتفاتات الى تاريخ العرب واثارهم : ولكنه شاء فيما نعتقد أن يدل الادباء الى ثروة اللغة وجمال التاريخ فكانت غايته حميدة ولكن الناس امزجة واذواق تختلف باختلاف العصور ، وتنقلب بتقلب الأيام والدهور :

على اننا نجد الى جانب هذا قطعا متساوقة اللفظ رائعة الحسن بليغة الأسلوب لأن اسجاعها منسجمة والفاظها متناسقة وهى فى مجموعها ذات مسحة من الجمال لا تنكر : هذا بعض ماجاء فى فصل عنوانه « نابليون » قال :

« وقفت على قبر نابليون امس ، احدث النفس بما فى ذلك الرمس ، فاذا استكانة بعد صولة ، وقبر فى جوفه دولة ، وصولجـان كرته الأرض ، امسى مخراق لاعب ، وسرير كان فوقه البسط والقبض ، اضحى ملتقى ناع وناعب .

« اللهم غفرا هذا غلاب القياصرة ، وقهار الجبابرة ، دفع عنه سلطانه الأبطال والاقيال ، ولم يدفع عنـه الارض والثال . وكانت الأرض تضيق عن نفسه ، فامسى تسعه حفرة من رمسه » ...

وقوله من فصل آخر : « وصلت الى الى ذلك القصر ففتح الباب ، وكشف الحجاب ، فاذا جنة وحرير وملك كبير ، ودليا ودلر ، وليل ونهار ، ووجوه تشرق ، وحلى تبرق ، وقباب وشراعات ، ومقاصير وسرادقات ، وجنى ، كمصوف القسى ، وصحون ، فى فسحة الظنون ، تقدر بالأفكار ، لا الابصار ، وسقوف من مرمر ، وارض من عرعر ، وكان كل سقف لوح مصور ، وكل ارض روض منور » :

ء ء ء

تلاحظ حين تطالع كتاب « صهاريج اللؤلؤ » اطلاع مؤلفه الواسع على اخبار العرب واشعارها لأنه لاينى من الالتفات الى التاريخ والاستشهاد بالشعر الجميل .

ويروعك خيال السيد البكرى وسعته ، وقد شاء أن يكون جل كتـابه وصفا ، واكثر هـذا الوصف تشبيها . فلقد وصف سفره الى القسطنطينية ، وبعض ما شاهده فيها ، ووصف ليلة راقصة فى فينا ، ومنظر غابة بولونيا ، وهو اذا تحـدث عن الريف وصف مناظره ، واذا نظم حنينا الى مصر وصف القاهرة واحياءها : واذا وصف حاول أن يتحدث عن المشهد فى شتى ساعات

الليل والنهار ،وفى طلوع القمر وغيابه : انظر وهو مسافر الى القسطنطينية كيف يصف البحر فى النهار وهو « آونة كالزجاج الندى ، أو السيف الصدى ، يلوح كالصفيحة المدمرة ، والمرآة المجلوة » ثم يصفه وقت الاصيل وقد بدا « البحر كأنه مبرد ، أو درع مسرد ، أو انه مادية ، تنظر السماء فيها وجهها بكرة وعشية : حتى اذا اخضل الليل ، وارخى الذيل ، بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يحشق الظلماء ، أو قلادة . أو اسوار غادة . أو سنان لواه الضرب . . . ثم اذا غاب الهلال . و توارى فى الحجال . الفيت الكون من السواد . فى لبوس حديد أو لباس حداد : وكأنما الماء سماء . وكان السماء ماء . وكان النجوم در . يموج فى بحر . أو ثقوب فى قبة الديجور . يلوح منها النور . . . أو الماء صفائح فضة بيضاء . مسمرة بمسامير صغار . من نضار . فلا تفتأ السفينة تكابد الويل . من البحر والليل . حتى يلوح من الافق الضياء . كابتسام اللمياء . فاذا السفينة كأنها سر سر قتمه الظلام وكشفه الضرام » .

وانظر وصف فم غادة حسناء « وفم كانه اقحو انه لم تتصوح ، ووردة لم تتفتح ، يضحك عن جمان ، ويتنفس عن ريحان ، وينطق عن الحان. وخدود كنار الاخدود ، أو تفاح ، أو ماء وراح ، أو الشفق فى الصباح . ورد يفتحه النظر ، ويشعشعه الخفر ، كان حياءه جلنار ، وبياضه ماء واقف جار » .

نجد اذن السيد البكرى يحاول الوصف الفنى لا الوصف الواقعى . ونجده يعمد الى التشبيه حتى نكاد نقول ان الكتاب كله تشابيه . وهو يتفاوت قوة وضعفاً وغرابة وقربا . ويتناول فيه جميع المعانى التى تمر بخاطره والصور التى يولدها خياله . ويستعمل شتى الوسائل . فالتاريخ والادب والنحو والصرف والعروض والبلاغة كل هذا مصادر يتسلهمها فتاتى التشابيه بعضها تلو الاخر كما نجد ذلك فى الامثلة التى قدمناها ، وفى هذا الوصف للقطار ويسميه « وابور البر » للتفرقة بينه وبين « وابور البحر » أى الباخرة . قال : « فركبنا وابور فى ليلة عرية ،

فسرى بنا وكانه ثعبان ، له عينان تقدان ، ينساب فى القيعان ، ويلتوى على الرعان ، وأنه مبتدأ متعدد الاخبار ، أو كلم مجرورة بحرف جار ، أو أنه بيت ذو تقطيع ، من البحر السريع ، فتارة وعل على الجبال ، وأخرى جدول بين الادغال ، أولة ينطلق كالجواد ، ومرة يثب كالجراد . وقد يدور فى الصعيد كخذروف الوليد . إن أرتقى فدعوة المظلوم ، أو انحط فروح الظلوم .أسرى فى الليال ، من طيف الخيال ، وامضى فى الذهاب ، من العقاب ، (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) ، كانه غراب بين ، أو نعب فقرقة أثنين ... »

وله الى هذا تشابيه بعيدة فيها جمال وجدة كقوله : « والمجد كالخمر كلما طالت عليه الآماد ، جاد ، وكالحديث كلما علا فى الاسناد ، ساد » وقوله « يقبل المرء على باريس فاذا حدائق وقصور ، دليل كسواد العين كله نور » ،

هذه الامثلة التى أوردناها وافية لبيان خيال السيد محمد توفيق البكرى ومنحاه ، وهو خيال شاعر ولا شك . ولو عالج السيد البكرى الشعر كما عالجه شعراء عصره لعد من خير شعرائه ، ولكنه اكتفى من النظم بابيات أو قصائد فى موضوعات خاصة تلمح فيها الشاعرية والمقدرة على التصرف بالمعانى ، وأن لا تلمح فيها عاطفة وقادة . ولعل السيد، ومقامه فى الدين مقامة ، ابى على شعره أن تكون فيه مسحة قوية من الشعور. ولكننا نعتقد أنه لولا أحساسه العميق بهذه الاشياء التى شاهدها لما استطاع وصفها وصفا جميلا فى أغلب الاحيان .

وشعره رصين العبارة قوى الاسلوب فمن قوله :

من شهب تمتد فى الجو مصعدا وتلوى على جنبيه مثل الاراقم
وتمطر فيه لؤلؤا أوزبرجدا شآبيب منها ساجم بعد ساجم

فطوراً ترى أن السماء حديقة تفتح فيها النور بين الكمائم
وحينا ترى أن الحديقةفى الدجى اسماء تهادى بالنجوم الرواجم

ـ ـ ـ

لعل خيال السيد محمد توفيق البكرى الواسع لم يترك مجالا للتفكير الطويل والتأمل العميق فى الوجود والحياة واسرارها ،

لذلك تجده يتناول بعض الافكار تناولا سطحيا قلما يتعمق فيها. وله قصيدة بعنوان « شذور » من ابيات ذات قواف مختلفة أودعها أفكاراً متناثرة يظهر فيها مطالبا بحقوق الرعية مدافعا عنها من استبداد الحكام ، على ما كان يفعله عباس ويجرى أيامئذ . وله فى الحكام نظرة قاسية فصلها فى فصل « العزلة » . ولكن هذا بجميعه لا يكفى لكى لكون عنه رايا واضحا كمفكر .

جرجي زيدان

فى أول سبتمبر سنة ١٨٩٢ ظهر العدد الأول من مجلة « الهلال » فكانت وقتئذ ظاهرة أدبية فى مصر وغيرها من البلاد العربية :

كانت الآداب العربية فى ذلك العهد تعيش على التراث الذى وصل اليها من السلف القديم ، ولم يكن هذا التراث معروفاً باكمله لأن الكثير من أدباء القرن الرابع مثلا كانت مؤلفاتهم لا تزال مخطوطة مطوية فى المكاتب الكبيرة . ولم تكن الدراسات التى قام بها علماء الاستشراق فى الأدب العربى معروفة بين الناطقين بالضاد الا لنفر قليل منهم ، وكان هذا النفر قلما يعنى بنقلها الى لغته او الا عتماد عليها فى ابحاثه .

أما النهضة الادبية التى قامت فى سوريا ولبنان فكانت آخذة بالفتور والركود . فقد طويت صفحة اليازجى الكبير والشدياق والبستانى وتوقفت عن الظهور مجلة « الجنان » وأشتدت وطأة الحكم العثمانى على سوريا فتشتت شمل أدبائها : وظهرت مجلة « الطبيب » عاما ثم أنفرط عقد الأدباء الذين أنشأوها فاحتجبت . وكذلك احتجبت مجلة « الصفاء » وانتقلت مجلة « المقتطف » الى القاهرة حيث تابعت جهودها فى خدمة العلم والثقافة .

أما مصر فكانت نهضتها علمية فى النصف الأول من القرن الماضى وقد ظلت هذه الظاهرة غالبة عليها حتى ظهرت بوادر نهضة جديدة فى أواسط النصف الثانى من القرن الماضى ، وكان الصحافة من أوضح تباشيرها : ففى ذلك العهد ظهرت « الأهرام » بالاسكندرية ، وأصبحت قاعدة البلاد الثانية

مجالاً لنشاط صحفي كبير . ففيها صدرت الصحف التي كان أديب أسحق في طليعة محرريها كما صدرت أولى المجلات المصورة . وفي ذلك العهد تتطور تحرير صحيفة « الوقائع المصرية » بعد أن تولاه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وساعده فيه سعد زغلول وابراهيم الهباوى ، وصدرت بعد ذلك « المقطم » و « المؤيد » . ولابد من الاشارة إلى ظهور مجلة « الاستاذ » للسيد عبدالله النديم قبل ظهور « الهلال » بقليل .

وقد أسهمت هذه الصحف في تبسيط الاسلوب العربي والاقلاع عن السجع الذى كان يلزم الانشاء . وكان أثر السيد جمال الدين الافغانى بارزاً في هذا التوجيه ، كما كان ذلك بارزاً في حرية الرأى التي أخذت بها الصحف أيامئذا في معالجة شئون العالم الاسلامي والعربي : وحرية الاسلوب وحرية الرأى صنوان يمتان الى نسب واحد .

أما الشعر فقد كان في أوائل نهضته التي بشرت بها منظومات محمود سامي البارودى : وكان قد حكم علية بالنفي بعد الحوادث العرابية . وكان احمد شوقي لا يزال بباريس يتلقى العلم ويرسل الى الصحف المصرية بين حين وحين قصائد لعلها كانت تنم عن العهد الجديد الذى استحدثته روائع شوقي في الشعر العربي بعد ذلك .

ويضاف الى هذا وذاك قلة المدارس الوطنية ووفرة المدارس الاجنبية . وكانت هذه المدارس تنشر علوم الغرب وتبث روحه ولغاته في جوانب العالم العربي فيقبل الشباب عل مطالعة أدب الغرب ويصدفون عن الأدب العربي في جهل وتكاسل .

لذلك كان صدور الهلال سنة ١٨٩١ ظاهرة أدبية جديرة بالاعتبار لانه لم

يلبث أن أصبح عاملا هاما فى حث الشباب على الأقبال على الأدب العربى والأخذ به .

أخذ جرجى زيدان يعالج التاريخ الاسلامى ، ويدرس الأدب العربى على طريقة جديدة يعتمد فيها على الأصول العربية ودراسات المستشرقين ، وكان فى اسلوبه كثير من البساطة والسهولة . ولعله كان يتعمدها لتقريب مايكتبه من فهم الناس . وقد قال : « يجب أن تكون عبارة الكاتب فى البحوث التاريخية والادبية عبارة بسيطة واضحة مسلسلة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء لا يحتاج فى فهمها الى التوقف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة ، والافان عجز الكاتب يعد نقصا فى واجبات صناعته . »

على أنه اذا كان هذا الاسلوب مما يولد الرغبة فى المطالعة ، ويساعد على توضيح أراء الكاتب وتقريبها الى الاذهان فانه ليس مما يساعد على تمكين الطالب الناشىء من أساليب البلاغة ، وهى ضرورية للاديب . ولكنه يجب أن نقول أن بعضاً من الأدباء الذين تأثروا بمطالعة كتب جرجى زيدان وابحاثه فى مجلة « الهلال » وقصصه التاريخية ، استفزتهم هذه المطالعات وحملتهم على الاستزادة من التبحر فى أدب العرب وتاريخهم فعادوا الى الاصول القديمة فوجدوا فيها ما يقوم أسلوبهم ويكسبه جزالة وقوة .

وأذكر من باب التمثيل ماقصه الدكتور محمد حسين هيكل عن أبحاث صاحب الهلال وقصصه التاريخية وكيف كانت من الدوافع التى رغبته فى القراءة . وروى الاستاذ فكرى أباظه شيئاً كهذا . ولعله لو اتيح لغيرهما من الادباء أن يدونوا ذكرياتهم عن أثر جرجى زيدان فى تنشئتهم لقالوا كما قال الاديبان الكبيران .

كان من الصعب على الطالب الناشىء فى مطالع هذا القرن ، وخاصة اذا كان من الذين تعلموا فى المدارس الاجنبية أن يصبر على مطالعة بعض الكتب العربية القديمة البعيدة عن تناول البحث بالأساليب الأدبية العصرية ، فكان جرجى زيدان فى طليعة الذين تناولوا ما فى تلك الكتب العربية القديمة من تاريخ واخبار وافكار على طريقة عصرية ترضى عقول شبان عصره ويستسيغها ذوقهم .

وإنما اخص الشبان بالذكر لأنى أرى فى كتب جرجى زيدتن عاملا ثقافيا عربيا قديراً على توجيه الطلاب الى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى ، الملك رأى جمهور قراء العربية ايامئذ فى تلك الكتب والابحاث التى كان يكتبهازيدان نهجا جديداً فى معالجة التاريخفاقبلوا على مطالعتها. وهذا ما يفسر سرعة انتشار مجلة « الهلال » فى شتى الاقطار العربية .

ومما يفسر ايضاسرعة انتشار مجلة«الهلال»واقبال القراء عليهاأن صاحبها عنى خاصة بالتاريخ الإسلامى ، وتاريخ مصر ، وتاريخ الادب ، وتاريخ مشاهير الشرق . والناس كانوا ولا يزالون ولو عين بمطالعة مثل هذه الابحاث ، لأن فى التاريخ غذاء للقلب والعقل ، وفيه مواعظ وحكم ، وهو وسط بين البحث المفيد والقصة المسلية .

° ° °

حملت مجلة « الهلال » اذن إلى قراء العربية رسالة منشئها الروحية حين صدر سنة ١٨٩٢ ، تلك الرسالة التى كانت قائمة على تعريف الناطقين بالضاد بماضيهم على طريقة حديثة لم يألفوها فيما طالعوه من كتب قديمة . وكان جرجى زيدان قد تنقل قبل ذلك بين سوريا ومصر والسودان ودرس وتثقف وعالج الكتابة وشئون الصحافة .

فقـد ولد جرجي زيدان ببيروت في ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٦١ ، ونشأ عصامياً يحب العلم ويقبل عليه ويتوسل بشتى الوسائل للاستزادة منه . كان والده صاحب مطعم ، وكان عليه أن يساعده في عمله وأن يتـولى حساب الزبائن ، ولكنه كان برما بهـذا العمل ، وكان يتعرف بالشبان المتعلمين والأدباء ويطالع الكتب التي يشيرون عليه بمطالعتها حتى اتيح له دخول الكلية الأمريكية (الجامعة الامريكية اليوم) واظهر ميلا واضحا لدراسة الطب والصيدلة ، ولكن حادثا جرى فيها ضد احد اساتذتها الامريكيين اضطره الى مغـادرتها فسافر الى مصر وانتظم في الحملة النيلية الى السودان مترجما في قلم المخابرات ، وحرر صحيفة « الزمان » التي كان يصدرها الكسان صرفيان وتولى إدارة مجلة « المقتطف » ثم انقطع إلى اصدار مجلة « الهلال » :

وكان جرجي زيدان حين اصدر مجلته قد وعى صدره شتى العلوم والمعارف بعد أن درس منها ما درس وطالع فيها ما طالع ، واتسع قلبه لمختلف تجارب الحياة . وقـد ذاق منها ما ذاق ، وخبر ما خبر : فبضاعته في العلم والأدب ثمينة ، ومعارفه في التاريخ والاخبار غزيرة ، وصلته بالحياة ومعـرفته بالناس قوية متينة . فلا غرو اذا نجح بالرغم مما اعترضه من صعوبات استطاع أن يتغلب عليها بما اوتي من صبر وجلد :

كان زيدان في أول عهـده بتأسيس « الهلال » يتولى بنفسه تحـرير المجلة وإدارتها ويشرف على اعمال الطبع ولم يعهد الى غيره بتولي أعمال الإدارة إلا بعد أن ضمن للمجلة البقاء وبعد أن انتشرت ورسخت دعائمها :

ويتصل تاريخ جرجي زيدان بتاريخ مجلته ومؤلفاته : وكان قد اعتزم منذ سنة ١٩٠٤ اصدارها عشرة أشهر كل عام ليتفرغ في الشهرين الآخرين للسفر الى أوربا وتركيا وغيرهما للاستجمام والبحث عن الكتب والمخطوطات استعداداً

لتأليف الكتب التى ظهرت بعد ذلك والتى كان يبعث بها هدية لمشتركى المجلة تعويضاً لهم عن شهرى العطلة ، اضف الى هذا و ذاك أنه كان يعود من رحلاته بابحاث قيمة فى حالة البلاد التى يزورها من نواحى التاريخ والتقدم والعمران والاجتماع ينشرها مسلسلة فى إجزاء « الهلال » من ذلك العام ٥

وفى اوائل العقد الثانى من هـذا القرن منح الخديو عباس جرجى زيدان رتبة ميرميران والتدبته الجامعة المصرية لتدريس التاريخ الإسلامى فيها. ولكن هذا الانتداب لم يرق لبعض الناس فثاروا حوله حملة صحيفه انتهت بالغائه :

وفى مساء ٢١ يوليو سنة١٩١٤ اتم جرجى زيدان الجزء الرابع والأخير من كتابه« تاريخ آداب اللغة العربية».ولم يكد يخط السطر الأخير منه حتى اصيب بنوبة قلبية وتوفى الى رحمة ربه . والى ذلك اشار خليـل مطران فى مطلع قصيدته فى رثائه اذ قال:

برغم المنى ذاك الختـام المحـبر　　كتابك تطويه ومنعاك ينشر

ــــ ــــ ــــ

تحدث مرة القاص الفرنسى « بول بورجيه » الى أحد الصحفيين عن وفرة انتاجه الأدبى فقال انه يخيل له أن المداد اختلط بدمه بحيث انه لوحلل هذا الدم لوجد فيه قطرات منه . ولو شاء جرجى زيدان لقال مثل ما قال «بول بورجيه» ويكفى أن نقف على ثبت مؤلفاته وأن نضيف اليه اثنين وعشرين مجلداً من « الهلال » لنشعر بالعمل الضخم الجبار الذى قام به جرجى زيدان .

صحيح أن بعض هذه المؤلفات ظهرت أولا بمجلة « الهلال » مثل سلسلة قصص التاريخ الإسلامى أو تراجم مشاهير الشرق ولكن ما عداها من المؤلفات

مثل تاريخ التمدن الإسلامى ، وتاريخ العرب قبـل الإسلام ، وتاريخ اداب اللغة العربية ، هذه المؤلفات الضخمةالتى تكفى كل واحدة منها لتملأ حيـاة اديب بما تتطلبه من مطالعة وبحث ومراجعة وأعمال رأى ، كل هذه المؤلفات دليل على الجهد العظيم الذى بذله جرجى زيدان فى حيـاته التى كانت قصيرة بالنسبة الى التاجه الضخم العظيم ، اذ توفى الى رحمة ربه وهو فى الثالثة والخمسين من عمره .

فاذا استعرضنا هذه المؤلفات وجدنا الكثير منهـا ينصب على التاريخ ، فنمر مسرعين بطائفة منها أما لأننالم نطلع عليها أو لأنها لم تترك أثراً كبيراً بعدها: فمنها « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » ، و « تاريخ الماسونية العـام » ، و « انساب العرب القدماء » ، و « علم الفراسة الحديث » ، و « طبقـات الأمم وعجائب الخلق » . ولعل هذه الكتب كانت ذات أثر في عهـدها أو أنها تسد فراغا فى عالم التأليف العربى وقتئذ ، أو أنها كتبت تحت تأثير خاص كالرد على بعض المستشرقين فى كتاب انساب العرب . وسنكتفى بعرض أهم مؤلفـاته .

◠ ◠ ◠

كان كتاب « تاريخ مصر الحديث » أول مؤلفات جرجى زيدان التاريخية الكبيرة . وقد ظهر سنة ١٨٨٩ ، أى قبل ظهور « الهلال » بقليل . وكان أول كتاب فى تاريخ مصر قديمها وحديثها موضوعا على النمط الحديث . ومعروف أن تاريخ مصر الى ما قبل كتاب زيدان لم يكن مجملا فى مؤلف واحد ، بل كان ينتظم فى كثير من الكتب تبـدأ بخطط المقريزى ثم تاريخ ابن اياس ، ويتلوه الجبرتى . وقد شاء على باشا مبارك أن يتم خطط المقريزى فوضع « الخطط

التوفيقية الجديدة » . ولم يكن كتــاب « النجوم الزاهرة » معروفاً فى ذلك العهد .

وهذه الكتب جميعها على قيمتها التاريخية العظيمة لم تكن لتفى بالمراد ، خصوصاً من حيث تاريخ مصر القديم ، ومن حيث تنظيم الحوادث وترتيبها على الطريقة الحديثة . فبعضها يؤرخ عامافعاما ،وبعضها يؤرخ مدينة فمدينة : وقد قال زيدان فى مقدمة كتابه « ومن الغرائب انى لم ار بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف » ...

جاء كتاب « تاريخ مصر الحديث » إذن يسد فراغاً كبيراً فى عهـــده : أما اليوم وقد كثرت هذه المؤلفات بين مطولة ومختصرةفان هذا الكتاب لايزال يحتفظ بقيمته من حيث تاريخ مصر من الفتح الإسلامى الى فتـــح السودان ففيه ربط متين للحـــوادث ومعلومات واسعة ونظرات صادقة فى الحكم على الحوادث والاشخاص :

أما الجزء الخاص بتاريخ مصر الفرعونية فمختصر جداً لأن كتابة هـــذا التاريخ لم تكن من اغراض المؤلف ، وهو على كل حال قد اصبحقديما بعـــد الاكتشافات العظيمة التى حدثت فى هذا القرن والتى ساعدت على جلاء تاريخ ذلك العهد ووضوح حوادثه :

◇ ◇ ◇

يجد الباحث فى التاريخ الإسلامى مصادر عديدة واســـعة المجال شتيتة النواحى . كما يلقى اختلافا بين المؤرخين ، خصوصاً فى بعض الشئون التى تتشعب فيها الحوادث وتتعدد الابحاث حتى ليصعب ربطها واجمالها :

وتنتظم فى فصول هذا التاريخ ابواب عديدة منها الحوادث التاريخيـــة

المسلسلة ، وحالة الثقافة العامة وما يتصل بها من أدب وفقه ،والحياة الاجتماعية وتطورها ، ومالية الدولة ونظام الجيش ونظام الحكم وقوانينه ، وهذا جميعه ينتشر فى كتب مختلفة ، وبعضها كالحياة الاجتماعية لم يعرض له مؤرخو العرب إلا فى بوادر مبعثرة شتيتة .

ويضاف الى المصادر العربية العديدة المختلفة ابحاث المستشرقين فى هذا الباب . ولهؤلاء نظريات خاصة لعل الكاتب الشرقى لا يستطيع أن يتورط فيها إلا على قدر ، أو انه يجب عليه تمحيصها لمعرفة الأغراض التى ترمى اليها . فلا عجب اذا قال زيدان انه لكتابة « تاريخ التمدن الاسلامى » طالع اكثر من مائتى مجلد بين عربى واوربى. ولاعجب ايضاً أن يقول احمد امين أن «تاريخ التمدن الإسلامى عمل فى منتهى المشقة والعسر فالمتعرض له يلزمه أن يكون مثقفا ثقافة واسعة فى العلم والأدب والمال والفقه والمذاهب الدينية وقوانين التطورات الاجتماعية » ...

وقد افرد جرجى زيدان فى تاريخ التمدن الإسلامى فصولا خاصة للعديد من الأبواب التى ذكرناها بحيث جاء مفصلاً لجميع العناصر التى يتألف منها هذا التاريخ .

وكان زيدان حين اخذ يجمع المواد لتأليف كتابه قد نشر فصولا فى التاريخ الإسلامى فى «الهلال» وباشر تأليف سلسلة القصص التاريخية التى تستمد حوادثها منه : وقد قال :

« قد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام . وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ولعلق ما يبدو لنا من حقائقه على امل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . ونظراً لما نعتقد من افتقار قراء العربية الى نشر هذا التاريخ بينهم ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله ، وأخذنا نهىء الاذهان لمعالجة

هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الإسلامية لأن مطالعة التاريخ الصرف يثقل على جمهور القراء » .

وظهر هذا الكتاب الذى يقع فى خمسة اجزاء فى أواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن ، ونقل الى خمس لغات منها الفرنسية والانجليزية . وفى هذا دلالة كبيرة على قيمة الكتاب ، لا فى عهد ظهوره فحسب ، بل فى عهدنا الحاضر ايضاً . ولا يضيره ما وجه اليه من نقد شديد انصب فى اغلبه على الشكل والأسلوب وقلما استطاع أن ينفذ الى الجوهر :

◌ ◌ ◌

بعد أن أرخ جرجى زيدان للعرب فى الإسلام ، شاء أن يكتب «تاريخ العرب قبل الإسلام » ، وهو بحث وعر المسلك ، صعب المركب ، قلما يسلم الباحث فيه من العثار والزلل ، وقد كان الى هذا القرن الأخير مبعثراً فى كتب التاريخ والأدب والتفسير ، لأن مؤرخى العرب دونوا جميع الوقائع التى اتصلت بهم ، أو نقلها الرواة اليهم ، أو لفقها من كان يحلو له هذا التلفيق فجاء هذا التاريخ مجموعة طريفة من الأخبار يناقض بعضها البعض الآخر . وزاد فى بلبلة الآراء والمذاهب أن احدا من مؤرخى العرب لم يدون هذا التاريخ فى كتاب خاص . ويضاف إلى هذا وذاك أن اجزاء من هذا التاريخ كانت رهنا بالحفريات والاكتشافات الأثرية ومدى نشاطها .

ونعرف أن مؤرخين من اليونان عرضوا فى الماضى لتاريخ بلاد العرب ، وأن بعضاً من الباحثين المنقبين من أمثال «كارستن نيبور» الذى قصد فى أواخر القرن الثامن عشر على رأس بعثة الى بلاد العرب ، انهم سافروا للبحث والتنقيب فعانوا ما عانوه من مشاق ، ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الى بعض الغايات التى انتدبوا أنفسهم لها ؛

ولعل أول من عرض لكتابة تاريخ العـرب قبل الإسلام كان المستشرق الفرنسى « كوسان دى برسفال » فى اواسط القرن المـاضى فألف كتابا فى ثلاثة اجزاء عرض فى الأولين منها لتاريخ العرب قبل الإسلام . فكان أول من نظم ابواب هذا التاريخ فى جلاء ووضوح .

وفى أواخر القرن المـاضى اعلن اوسكار الثانى ملك السويد عن جائزة لمن يؤلف احسن كتاب فى تاريخ العرب قبل الإسلام . فتناول هذا الموضوع طائفة من الأدباء والمؤرخين وبظهران احداً لم يفلح فى نيل الجـائزة لأن االلجنة التى تولت بحث المؤلفات التى قدمت لهذا الغرض قررت انه ليس بينها كتاب واحد وضع وفاقا للشروط المقررة . ولكنها نوهت بكتاب « بلوغ الأرب فى احوال العرب » لمؤلفه السيد محمود الالوسى فأجازت نشره : وهو كتاب يقع فى ثلاثة اجزاء حوت كل اخبار العرب ؛

ومما يلاحظ فى هذا المجال انه بينما كتب المستشرق الفرنسى كتابه قبـل ظهور الاكتشافات فقد تجاهلها السيد الالوسى تماما كما تجاهل المؤرخين اليونانيين ؛

أما جرجى زيدان فقـد احاط بجميع ما كتب فى هـذا الباب بالفرنسية والانجليزية والألمانية فضلا عن العربية قبل أن يكتب الجزء الأول من كتـاب « العرب قبل الإسلام » ، وهو « يتضمن البحث فى أصل العرب وتاريخ دولهم القديمة من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد الى ظهور الإسلام . ويدخل فى ذلك تاريخ العمالقة فى بابل ومصر وفى بطرا وتدمر وغيرها . وتاريخ العرب القحطانية فى اليمن ودولها المعينية والسبأية والحميرية ، وتمدنهم فى مأرب وظفار وحضر موت ، واخبـار عرب الشمال من عدنان وما كان لهـم من الدول فى الحجاز ومشارف الشام والعرب وحروبهم وغير ذلك » .

ولعل كتاب « العرب قبل الإسلام » من خير ماوضع فى بابه ، ولعله كذلك من ابرز مؤلفات زيدان وانفعها لأن ما جلاه فيه من الأخبار والآراء كان فى عهده يكاد يكون مجهولا إلا من بعض الخاصة ، ولا يزال حتى اليوم يتهيبه الباحثون وقلما عرض له المؤرخون فى كتاب شامل : وقد اقتصر احمد امين فى كتاب (فجر الإسلام) على الحياة العقلية .

ولعل كتاب (العرب قبل الإسلام) لم يفقد شيئاً من قيمته لأن ابحاث الأثريين فى بلاد العرب نفسها لم تكد تتجاوز ما كانت فى عهده ، ولعلها توسعت قليلا فى تدمر وبطرا ولكنها لم تلق نورا جديداً على تاريخ تلك الاصقاع .

أما طريقة جرجى زيدان فى تأليف كتاب (العرب قبل الاسلام) فلا تختلف عن تلك التى اتبعها فى كتابة تاريخ التمدن الأسلامى من حيث التفصيل والتبويب وضم الأخبار والحوادث فى كل باب والأشارة الى المصادر :

وقد ظهر الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٩٠٨ ، وهو يحوى تاريخ العرب فى عهده القديم . ثم شغل عن اتمامه بتاريخ اداب اللغة العربية ولم يفسح له الا جل العودة اليه :

ـــــــــ

عنى جرجى زيدان بدراسة تاريخ اداب اللغة العربية منذ أخذ يصدر (الهلال . فقد ابتدأ فى الجزء التاسع من السنة الثانية (١٨٩٣) ينشر فصولا فى هذا الباب أطلق عليها عنوان (تاريخ اداب اللغة العربية) ولعله كان أول من عرف هذا العلم بهذا الأسم : وأمتدت كتاباته فيه الى اواخر السنة الثالثة من والهلال :

وإذا رجعنا الى اثار العرب في هذا الفن وجدنا انهم اكثروا من الكتابة في تاريخ اداب لغتهم واخبار شعرائها وادبائها ، وعرضوا لنقدهم وتبيان محاسنهم والكشف عن سقطاتهم ، وخص بعض المتاخرين منهم الكتاب والمؤلفين بعرض يضيق ويتسع حسب اغراض الكاتب . ولكن واحداً منهم لم يتناول تاريخ الأدب كعلم قائم بنفسه .

وفي أوائل هذا القرن كتب المستشرق الفرنسي (كلمان هيار) مؤلفه المعروف في تاريخ ادب اللغة العربية . وأما في لغة الضاد فلم يقدم احد على كتابة هذا التاريخ على النمط الحديث حتى فعل جرجي زيدان : وقد رأى وقتئذ (١٩١٠) ان الأفكار مهيأة لهذا البحث بعد الجائزة التي قررتها الجامعة المصرية لخير كتاب يصدر في هذا العلم . وكانت هذه الجائزة حافزة لغير زيدان من الأدباء للتأليف فيه فكتب مصطفى صادق الرافعي (تاريخ اللغة العربية) ونهج فيه منهجا آخر غير الذي سار عليه زيدان : وليس هنا مجال الحديث عن كتاب الرافعي والمقارنة بينه وبين كتاب جرجي زيدان ولكننا نكتفي بان نقول أن هذا الأخير اوسع مدى وابعد غاية ، وان صاحبه قد اتمه في حين توقف الرافعي في متوسط الطريق .

وقد قسم زيدان كتابه وفقا للعصور السياسية التي تقلبت على العالم الاسلامي ووضع لكل قسم مقدمة بحث فيها التطورات التي طرأت على الأدب والعقل والذوق والمميزات البارزة فيها وما كان للانقلابات السياسية من أثر في هذه التطورات . ولعل من الخير ان نترك الكلام لزيدان نفسه في شرح ما اسماه (نسق هذا الكتاب في المقدمة التي وضعها للجزء الثاني منه قال : (قسمنا كتابنا الى أعصر بينا فيها ما تقلبت عليه اداب اللغة في كل عصر . وذكرنا الأسباب

السياسية والاجتماعية التي اثرت في ذلك وما قد يقابلها عند الأمم الأخرى ، ومزية العرب فيها ، وارخنا كل علم في كل عصر ؛ وترجمنا للنابغين فيه، وذكرنا ما خلفوه من الكتب ، واقتصرنا من ذلك على ما يمكن الحصول عليه. ووضعنا اهم تلك الكتب ومنزلتها من سواها ، واشرنا الى المطبوع منها مع سنة الطبع ومكانه ، ومالم يطبع ذكرنا مكان وجوده في اشهر المكاتب الكبرى بمصر او اوربا وغيرها من المكاتب العمومية او الخصوصية ، وربما فاتنا ذكر كتب لا توجد الا في بعض المكاتب الخصوصية التي لم يصلنا خبرها ،

وفمن أحب الاطلاع على تاريخ علم من العلوم مثلا طلبه في كل عصر ؛ وتتبع تاريخه الى آخره ؛ . واذا اراد الاطلاع على ترجمة عالم أو شاعر أو أديب أو أي رجل من رجال العلم أو الادب طلب ترجمته في باب العلم الذي غلب عليه حسب الاعصر فيجد هناك خلاصة ترجمته وحقيقة منزلته وما خلفه من الكتب مما وصل الينا خبره ووصف كل كتاب واين يوجد . واذا شاء التوسع في ترجمة ذلك الرجل رجع الى ماذكرناه من المآخذ في ذيل ترجمته ... »

ويقول بعض العارفين أن زيدان درج في تنسيق كتابه وخاصة في وصف طبعات الكتب ومكانها في المكاتب على نمط المستشرق الالماني المعروف « بروكلمان » وقد قوبل كتاب تاريخ أداب اللغة وخاصة الجزءان الاول والثاني بترحيب الادباء . ولكنه كان ترحيبا يشوبه نقد شديد ، في بعضه كثير من التحامل . وكان زيدان رحب الصدر ، يستقبل هذا النقد ويستفيد منه جهد طاقته . ولا أدل على ذلك من الردود التي خص بها بعض منتقد به في مقدمة الجزء الذي يتلو سابقه الذي كان موضوع النقد .

وقد استفاد زيدان في وضع كتابه بابحاث جميع من سبقه من الكتاب العرب

والاوربيين فجاء مؤلفه دائرة معارف للاداب العربية بما حواه من معارض للاراء ومراجع ومساند؛

وقد كثرت اليوم المؤلفات فى هذا الموضوع . وبالرغم من تقادم العهد على كتاب زيدان فانه لايزال يحتفظ بقيمته الادبية ، ولايزال مرجعا هاما يستفيدمنه الادباء والمتأدبون على السواء ؛

ويقع تاريخ آداب اللغة العربية فى أربعة اجزاء نشر الأول منها سنة ١٩١ ثم ظهرت الأجزاء الثلاثة الاخرى فى الاعوام التالية ، فى كل عام كتاب ؛ وقد اتم الاخير منها شهر فىيوليو سنة ١٩١٤ ؛ فلم يكد يطوى كتابه حتى انتشر منحاه فى العالم العربى ، على كما ذكرنا من قبل ؛

٥٥٥

بقيت ناحية من أدب جرجى زيدان وهى القاص . ولعله ابتدأحياته الادبية بكتابة القصة لان قصص « اسير المتمهدى » و« جهادالمحبين » و « المملوك الشارد » ترجع الى أوائل اشتغاله بالأدب . ولما شاء أن يكتب تاريخ التمدن الاسلامى أخذ يعد الاذهان بتأليف قصص تستمدحوادثها من هذا التاريخ وأولها « فتاة غسان » فى جزئين . ثم « ارمانوسة مصر » وبعدها « عذراء قريش » ، وهذه القصص تناول فيها فجر التاريخ الاسلامى ، ثم أمتدت بعد ذلك طوراً فطوراً الى « شجرة الدر » . ويلاحظ أن عنوان كل قصة يدل على عهدها أو أن العنوان يتناول بطل التاريخ الذى يدور حوله محور القصة من أمثال« الحجاج بن يوسف » و « شارل وعبد الرحمن» و « وابو مسلم الخراسانى »و « العباسة أخت الرشيد » الى غير ذلك ؛

وليس هنا معرض الحديث عن القصة التاريخية ومدى نفعها وضررها ،

وهى ليست بدعة فى الأدب فقـــد عـــرفت من قبل فى آداب الغـــرب بمـــا كتبه (ولتر سكوت) الإنجليزى و (الكسندر دوماس) (الأب) الفرنسى . وفى أدبنا العربى قصص تاريخية عديدة لعل أقربها الى الذاكرة كتاب عنترة وقصص الزير و ابوزيد الهلالى والظاهر بيبرس وغيرها مما كان يروية القاصون فى المقاهى أو يتغنى به (الشاعر) على الربابة . ثم تطور هذا الفن فى العهد الحديث متأثراً بالأدب الغربى ... ولكن أحداً لم يحاول وضع تاريخ امة فى شكل قصصى ذى حلقات مسلسلة كما فعل زيدان ولعل هذا الغرض الذى توخاه كان مصدراً للنقد الذى يوجه الى قصصه ذلك انها على ما تمتاز به (من متانة الحبك وحسن السبك والاجادة فى التشويق) - كما يقول احمد أمين - تكاد تكون متشابهة من حيث البناء والوضع ، ولا تختلف الا فى الحوادث الا تتبدل باختلاف العصر الذى تتناوله القصة .

ولقد ذكرنا أن للقصة التاريخية منافع ومضار . ولعل اهم ما يوجه اليها من نقد ان بعضها يتناول حادثا ضئيل القدر فتفخمه ، وقد يعمد المؤلف الى تغيير الصفات المميزة للشخصيات التاريخية ، أو تبديل اتفق عليه الأجماع مما يحدث بلبلة فى الأذهان ، وخاصة لدى عامة القراء . ولكن جرجى زيدان عرف كيف يتفادى هذه الأخطاء . فقد تناول الشخصيات بما عرفت به من اخلاق وصفات وصورها على حقيقتها . وهو كثيراً مايرجع بعض الحوادث الى ثقات المؤرخين ليزيد فى طمأنينة القارى على صدق مايرويه له . ولعل مجال الخلق فى قصصه ضئيل وإنما الفضل الكبير يعود الى البناء والتنسيق .

***

وهكذا تعد مؤلفات جرجى زيدان ركنا هاما فى المكتبة العربية وكذلك

الأثنان وعشرون مجلداً من مجلة (الهلال) وكان يحرر اكثر فصولها وقلما اباح صفحاتها لغيره من الأدباء .

وكانت رسالة صاحب (الهلال) تاريخية تثقيفية اخلاقية . وقد اداها على خير وجه . ولم يكن يستطيع السير على المنهج الذى ارتسمه لنفسه وتأدية الرسالة التى اضطلع بها فى حياته لولا مواهبه العديدة من صبر طويل وجلد على العمل وقوة بادرة ونفاذ نظر واعمال رأى ، ولعلها كانت من ابرز صفاته ، وهى التى هيأت له السبيل الى وفرة المطالعة وكثرة الأنتاج وللوصول الى غاياته من خدمة العلم والادب .

أحمـــد أمين

اديب كبير ، ومؤرخ جليل ، وبحاثة متعمق ، ومفكر ناضج ، ذلك هو احمد امين . شخصية معروفة فى عالم الأدب ، شهيرة بين الأدباء والمتادبين ، تتلمذ عليه الكثير فى مدرسة القضاء الشرعى وجامعة القاهرة ، وانتفع العديدون بكتبه وابحاثه ، واتصل بعامة القراء عن طريق الصحافة الادبيـة ، كما اتصل بجمهرة اصدقاء الأدب عن طريق المحاضرات العامة .

وقد شهدناه اكثر من مرة بالاسكندرية محاضراً . وكانت مدرسة والليسيه فرنسيه ، نظمت سنة ١٩٢٩ سلسلة محاضرات باللغة العربية وكلفت الدكتور طه حسين بالقائها فاختار لها موضوع تطور الشعر العربى من الجـاهلية الى العصر العباسى . ثم نظمت فى السنة التالية سلسلة أخـرى افتتحها الدكتور طه حسين ثم القى احمد امين المحاضرة الثانية ، والقى باسم (جماعة نشر الثقافة) بالاسكندرية اكثر من محاضرة كانت احداها عن ابن المقفع . ولعل آخر محاضرة القـاها بالاسكندرية كانت عن ابى حيان التوحيدى بمناسبة نشر كتابه (الامتاع والمؤانسة) .

وكان احمد امين يدخل المسرح لإلقاء محـاضرته بقامته المديدة وهامته المتينه ، ولعل أول ما يلفت النظـر نظارتاه ببلورتيها السميكتين . فاذا ابتدأ المحاضرة تناول صلب موضوعه فى الحال من غير مقدمة ولا تمهيد : وهو فى ذلك مثله فى فصوله وابحاثه ، واضح العبارة منظم البحث ، تتسلسل افكاره فى تطور منطقى بغير مداورة ولا مواربة . وكان يحاضر فى اتئاد وتمهل ، بصوت واضح النبرات ، يداور الراءات عند لفظها كان فى لسانه لثغة خفيفة يحـاول مداراتها أو التخلص منها .

كان احمد امين من ادبائنا القلائل الذين ارخوا لأنفسهم فى كتاب عنوانه (حياتى) . وقد اعتمدناه فى بعض ما سنذكره عن نشأته وسيرته .

ولد احمد امين فى أول اكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وكان والده من سمخراط ولكنه انتقل صبيا الى القاهرة مع اخيه الاكبر ودخل الازهر وتعلم فيه وتخرج منه : فلا عجب اذا رأينا هـذا الوالد يعنى بتربية ابنه احمد لما توسمه فيه من رغبة فى العلم وهـدوء فى الخلق . وكان الوالد يشتد فى معاملة أبنائه ولا يرضى عن أى تهاون فى الشئون الخلقية مثل التقصير فى أداء واجباتهم وفروضهم ، والعودة الى المنزل بعد الغروب ، أو ما أشبه .

وهكذا نشأ أحمد الصغير فى أسرة متوسطة الحال اذ كان والده يكسب من الوظائف التى تولاها ما يكفيه وأسرته ويزيد ، كما نشأ فى وسط متزمت يعنى بشئون الدين وتتوفر أسباب العلم ووسائله .

وقد انطبعت أخلاقه بهذه العناصر المكونة للشخصية ، لأنه ظل طول حياته مفرطا فى الجد ، بعيداً عن المرح ، صبوراً على العمل ، جلداً فى تحمل المشقات ، مستجيباً لعوامل الحزن ، ديناً مؤمنا لا ينفذ الى قلبه شكوك الفلاسفة ولا انكار الملحدين ، حفيا ببساطة العيش والحديث والالقاء ، متمسكا بتبسيط الاسلوب وبعده عن الزينة والزخرف وعن التكلف والتصنع .

وعاش أحمد أمين فى جو مصرى خالص ، لم تنفذ إليه عناصر المدنية الحديثة بماديا تها ومعانيها : فالجو كذلك فى منزل الاسرة ، وفى الحارة التى يقع فيهما هذا المنزل ، وبين رفاقه من صبيان الحارة ، وفى الكتاب الذى تعلم فيه حروف الابجدية والفاتحة .

ولكن والده اختار له مدرسة ابتدائية نظامية بدلا من تلك الكتاتيب التى لا تفيد

ولا تغنى واختار له المدرسة التى كانت معروفة باسم بمدرسة « أم عباس » نسبة الى عباس الاول ، فتعلم فيها وفقاً لبرامجها . وشاء له والده أن يتعلم علاوة عن هذه البرامج ما يلقيه ويحفظه له من القرآن الكريم وفنون الازهر كالفية ابن مالك ، وأبيات من الشعر العربى يشرح له معانيها ويدربه على أعرابها فظهر تفوقه فى اللغة وأصولها .

ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى أرسله الى الازهر فأخذ يتلقى فيه دروساً شتى ويلقى عنتا كبيراً فى تفهمها حتى وفق فى العثور على طالب أخذ يشرح له المسائل ويدله على مداخلها ومخارجها فاستفاد . ولكنه ظل على مضض حتى طالع اعلانا بحاجة الجمعية الخيرية الاسلامية الى مدرسين للغة العربية فاجتاز الامتحان بنجاح وعين مدرسا فى طنطا .

وكان أحمد أمين يومئذ فى السادسة عشرة من عمره . وكان لم يغادر القاهرة ولا ركب القطار ولا عرف ما هى طنطا وغير طنطا من مدن الريف ... ولعله لو تناول هذا الموضوع كاتب آخر غير أحمد أمين فى مذكراته « حياتى » لجلا صورة ظريفة لذلك الشاب الذى كان يجهل أمور الدنيـــا ورأى نفسه غريباً فى مدينة لا يعرف أحداً فيها . ولكن أحمد أمين كان لا يميل كثيراً الى مثل هذه التخيلات والزخارف ، ولا يعنى برسم الصور الفنية وتنميقها .

ولعله لم يرتح الى معيشته وحيداً فى طنطا فلم يكد يمضى العام على تعيينه فيها حتى استقال وعاد الى القاهرة ، ورجع الى الازهر من جديد واستأنف والده تدريسه على طريقته التى أفادته أكثر مما أفاده أساتذته فى الازهر .

وتعرف أثناء هذا بعدد من الطلبة واتسع أمامه أفق الحياة وأخذ يطالع الكتب

ومنها « نجعة الرائد . . . » للشيخ ابراهيم اليازجي ومالت نفسه الى دخول مدرسة دار العلوم ولكنه سقط فى الكشف الطبى لضعف بصره .

وعاد الى امتهان التعليم ، وتقدم لامتحان أجرته وزارة المعارف لاختيـــار مدرسين للغة العربية فنجح ، وعين هذه المرة بمدرسة راتب باشا بالاسكندرية « فقصد إليها ورأى البحر لأول مرة « فسحره وصار يأنس به ويجلس إليه ويتأمل أمواجه . . . »

ولقد كان للاسكندرية أثر فى تكوينه اذ جعلته يقبل على المطالعة عند شاطىء البحر ، وتعرف الى أستاذ بمدرسة رأس التين الثانوية ، وكان يكبره بسنين ، فاستفاد من خبرته فى الحياة الشيء الكثير . وقد وصفه أحمد أمين بأنه اذا كان والده المعلم الاول فهذا الاستاذ المعلم الثانى ، لأنه أحس بأنه كان « خامداً فأيقظه ، وأعمى فأبصره ، وعبداً للتقاليد فحرره . . . »

وفى أثناء اقامته بالاسكندرية جرى حادث دنشواى المشئوم . ويقول أحمد أمين أنه كان فى ذلك العهد يطالع ثلاث صحف هى « اللواء » فيرى أنها تلهب الشعور الوطنى فلا تجاوبها نفسه ، و « المقطم » فيجد أنها تقاوم الحركة الوطنية فتعافها نفسه . و « المؤيد » وكانت أحب الصحف الثلاث إليه بصفته مسلماً . على أنه بعد حادث دنشواى أصبحت عواطفه مع « اللواء » .

ومن الخير أن نشير هنــا الى أن أحمد أمين شارك فى ثورة سنة ١٩١٩ مشاركة فعالة وساعد القائمين بها ودبر الكثير من شئونها .

وأقام أحمد امين بالاسكندرية سنتين ثم نقل فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ الى مدرسة « أم عباس » التى تعلم فيها فى مطلع حياته ولكنه لم يطل مقامه فيها .

فقد جرى أنه تقرر سنة ١٩٠٧ انشاء مدرسة القضاء الشرعى فتقدم أحمد أمين للانتساب اليها وسقط فى الكشف الطبى أيضاً لضعف نظره ولكنه قبل طالبا فيها بالرغم من ذلك ، فدرس اربع سنين بالقسم العالى ؛ وتخرج منها بتفوق وعين أستاذاً فيها .

وكان ناظر المدرسة عاطف بركات ، وكان يعلم فيها « الاخلاق » فاختار أحمد أمين مساعداً له ؛ وكان هذا الباب من التعليم يوافق مزاجه لميله الخاص الى المسائل العقلية وتفضيله لها على المسائل الادبية البحتة ، واستفاد من صحبته لعاطف بركات كثيراً فى تخير كتب القراءة والتدريب على التفكير المنظم .

وفى هذه الاثناء كان يحس بالحاجة الى تعلم لغة أوربية فاختار الانجليزية ، واهتدى الى احدى المدرسات ، وكانت فنانة فعلمته كيف يشعر بأنه شاب ، وكيف ينتبه للفن ، ويتفهم معانى الجمال ، وينظر الى العالم بعين الفنان الشاعر الذى يلاحظ جميع ما حوله ويحس بما فيه من جمال .

وهنا نجد أحمد أمين يستقبل نوعاً جديداً من الحياة ويخرج من محيط الأسرة والمدرسة الى الحياة .

تلك هى العناصر التى كونت شخصية أحمد أمين كانسان وأستاذ وأديب . أما بعد ذلك فنجملها فى انه انتقل من أستاذ فى القضاء الشرعى الى قاضى شرعى ثم عين مدرسا فى كلية الآداب بالجامعة ثم أصبح أستاذاً فعميداً للكلية . ثم انتدب مديراً للثقافة العامة بوزارة المعارف ، وفى عهده انشئت الجامعة الشعبية وامتدت فروعها الى بعض عواصم المحافظات . وعندما أحيل الى المعاش عين مديراً للادارة الثقافية بالجامعة العربية .

وظل احمد أمين يضطلع باعباء هذا المنصب حتى توفى الى رحمة ربه يوم يوم الأحد ٢٩ من يونيو سنة ١٩٥٤ .

كان حريا بأحمد أمين بعد الذى قدمناه من سيرته أن يعنى بالحيـاة العقلية حتى برز فيهـا كما برز ، وأن يعكف على الكتابة والتأليف حتى أخرج الطائفة العديدة من الكتب التى أخرجها ؛

وإذا صح أن الناس يتأثرون فى كبرهم بمـا شاهدوه وسمعوه فى صغرهم فان أثر ما شاهده أحمد أمين فى منزل والده وهو صغير وما لقيه من عناية هذا الوالد كان عميقاً فى توجيهه فى الحياة ؛

يروى الكاتب الفرنسى « جوزيف دى ميستر » أن والدته كانت تجيد تلاوة الشعر وانشاده بصوت ناعم جميل ، وكانت تحفظ منه الكثير ، وكان من عادتها اذا ما بكى وهو طفل فى مهده أن تهدهد له بقصيدة من شعر « راسين » الرائع بدلا من تلك الاناشيد التى اعتادت الامهات هدهدة اطفالهن بها ، ويعزو الكاتب الفرنسى نشأته الادبية وعنايته بجمال الأسلوب الى عادة أمه وما انطبعت عليه اذنه عندما كان طفلا لا يعى على شىء من موسيقى الشعر البديع ؛

وقد جرى لأحمد أمين ما يشبه هذه الظاهرة فى صغره . فقد ولد فى بيت اظهر ما فيه الكتب ، وكان والده معنيا بجمعها . وكانت تلك الاتلال المكدسة والمصففة منها من أوائل الأشياء التى وقعت عليها عيناه الصغيرتان ، ولعل ذلك كان من العناصر التى هيأته للادب والحيـاة العقلية وكونت فيه ملكة الكتابة ؛

وصرف ذلك الوالد جماع جهده على تنشئه ابنه بعد ان لا حظ فيه الميل الى التعلم والاستفادة : وكان يرهقه درساً وحفظا وشرحاً وتبصرة بشئون اللغـة وقواعـدها وعلومها . وكان احمد الصغير يقبل على هذا جميعه بذلك الجد الذى للفه منذ صباه والعناية التى تعودها فى منزل لايعرف ما هو المرح واللهو ، وكان كل ما حـوله « كفيلا بأن يميت الذوق ويبلد الحس ويقضى على الشعور

بالجمال ، حتى تخرج الى الحياة فاتم ملكاته ، وتعلم كيف يتذوق الفن والجمال .

وكان قد نشأ فى ذلك العهد طائفة من الشبان الذين تأثروا بانتظام التعليم فى مصر ووفرة مصادره وتعدد انواعه وأساليبه فنهلوا من المعـارف ، ما افادهم وجعلهم من دعائم النهضة التى اخذت بوادرها تظهر ابان الحرب العالمية الأولى ، ولم تلبث أن ابتدأت تأتى ثمارها بعـد انتهاء الثورة واستقرار الأمـــور .

وكان احمد أمين احد اولئك الشبان الذين لم يلبثوا أن تعارفوا وتألفوا فى ذلك العهد ، والحروب عادة تحمل على مثل هذا التقارب فى بعض البلدان التى تعيش على هامشها كما كانت الحالة فى مصر .

وقد قررت تلك النخبة من شباب مصر تأليف لجنة لدراسة أحوال القطر من مختلف نواحيها كالاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم . والظاهر أن الرياح عصفت بجميع هذه اللجان ولم تبق منها سوى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فوضع لها قانونها الاساسى ، وولى احمد امين رئاستها فسار بها فى الطريق الذى انتهى بها إلى النجاح فى اداء رسالتها طيلة مدة رياسته لها .

وانصرف احمد امين الى الكتابة والتأليف فكان أول النتاج الأدبى ترجمة كتاب « مبادىء الفلسفة » تأليف « رابو بورت » وتأليف كتـاب فى « علم الاخلاق » . وقد ظهر الكتابان سنة ١٩١٨ .

ولعـل انتاج احمد امين كان ليظل فى الفلسفة من نوع ما تقدم ، لو لم ينتقل الى التعليم فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ولو لم يصل به الحديث مع بعض زملائه الى وضع مشروعات ادبية طريفة .

وكان من هذه المشروعات ما اتفق عليه احمد امين مع الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادى ، وهو أن يدرسوا الحياة الإسلامية فى عصورها المتعاقبة فيؤرخ طه حسين للحياة الأدبية ، وعبد الحميد العبادى للحياة السياسية ، واحمد امين للحياة العقلية ٠

وبادر احمد امين إلى تأليف كتابه فى الحياة العقلية مبتدئاً بكتاب « فجر الإسلام » ثم « ضحى الإسلام » فى ثلاثة اجزاء واخيراً « ظهر الإسلام » ٠

ومما يؤسف له أن شئون الحياة شغلت زميليه عن التأليف فى الحياة السياسية والادبية ، ولوهما فعلا لظفرنا بتاريخ قيم شامل للحياة الإسلامية فى عصورها المختلفة ٠

وهنالك كتب أخرى فلسفية وأدبية ألفها احمد امين أو ترجمها أو اشترك فى تأليفها وترجمتها ، نذكر منها « النقد الأدبى » و « قصة الأدب فى العالم » و « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » وكان آخر ما كتبه « هرون الرشيد » و « الصعلكة والفتوة فى الاسلام » ٠

٥ ٥ ٥

ولم يقتصر جهد احمد امين الأدبى على الترجمة والتأليف والتعليم والقاء المحاضرات بل انصرف ايضاً إلى الصحافة ، وخاصة الصحافة الأدبية ٠

ولعل أول عهده بها فى صحيفة « السفور » التى كان يصدرها عبد الحميد حمدى ثم جعلها رهن تصرف تلك الجماعة من الشبان الذين ذكرنا تآلفهم فى الحرب العالمية الأولى فأقبلوا على اصدارها وتحريرها ٠ وصار احمد امين يكتب مقالا فى كل اسبوع ويشترك فى الاجتماعات التى تعقد لمراجعة ما ينشر فيها ٠

ثم جرى فى سنة ١٩٣٣ أن أصدر الأستاذ احمد حسن الزيات مجلة «الرسالة» فاشترك احمد امين فى تحريرها حتى اصدرت لجنة « التأليف والترجمة والنشر » مجلة « الثقافة » فعهد اليه بالإشراف عليها وصار يكتب فيها الابحاث التى جمعت فيما بعد فى كتاب اسماه « فيض الخاطر » وهو فى سبعة احزاء ، كما نشر فيها تراجم بعض المصلحين الشرقيين من أمثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده والكواكبى ومدحت باشا ، الوزير التركى الملقب بابى الأحرار ، ثم جمع ماكتبه من هذه التراجم فى كتاب اسماه « زعماء الاصلاح » .

ولم يلبث احمد امين أن انصل بمجلات أخرى وصار يغذى الصحافه الدورية المصرية بفصوله وابحاثه .

ooo

لانغالى إذا قلنا أن أسلوب احمد امين فى الكتابة هو العـدام الأسلوب ، بالمعنى المتواضع عليه لهذه الكلمة . فأحمد امين يتحاشى جميع اساليب البلاغة ، ويبتعد عن وسائل تجويد العبارات وتنميقها ، أو تنميق البحث لنفسه .

فهو يدخل موضوعه من غير تمهيد ولا مقدمة تحضر القارىء له ، ويتناوله فى طمأنينة القدير على معالجته وتبسيط المتمكن منه ، لأنك لا تكاد تسير فى مطالعته سطوراً حتى تجد الكاتب قد اعد للامر عدته ، ورسم للموضوع خطته واقام للمعانى حدودها وبين معالمها . وهكذا تتسلل المعانى آخذة بعضها برقاب بعض فى لغة سهلة ذات الفـاظ مختارة قوية وتركيب رصين واسلوب تقريرى واضح ، على الا يتعدى كل هـذا الغرض المقصود ، أى الاقتصار على اداء المعانى ، دون تقيد بأى نوع من أنواع البلاغـة ، أو أى لون من الوان الكتابة الأدبية والأسلوب البديعى المعروف .

ولعل تنشئة احمد أمين على الطريقة التى وصفناها ، واهتمامه بالمسائل العقلية ، وطريقة تفكيره ، ووسائله فى اعداد ابحاثه ، وانشغاله بتوضيح المعانى وتقريبها إلى الاذهان ... لعل هذا جميعه أسباب حدت باحمد امين الى اعتماد ذلك الأسلوب الذى وصفناه ، والذى لا يضيره انصرافه عن الاساليب الفنية المعروفة ما دام معنيا ببلاغة اللفظ ومتانة التركيب .

ولا شك أن مؤرخ الأدب العربى فى النصف الأول من القـرن العشرين سيفسح لأحمد امين مكانا مرموقاً ، وسيشير الى كتبه فى تاريخ الحيـاة العقلية الإسلامية ، والى أثره فى كتابة المقال ، والى عنـايته بتبسيط الأسلوب ، وإلى الأثر الذى خلفته مجلة « الثقافة » فى نفوس الشباب المتعلم ، وهو سينصفه إذا فعل ذلك .

الفهرس

للمـــــؤلف

جونه (فى سلسلة « أقرأ »)

معارك الاسكندرية

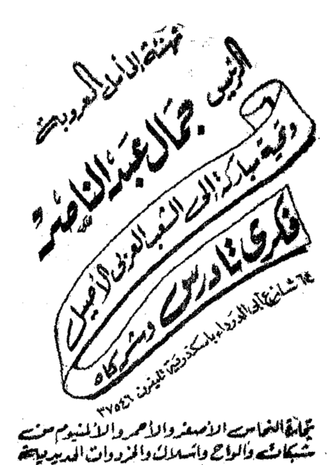
معركة السويس فيصل بين عهدين

القومية العربية

(من منشورات الوكالة العربية للدعاية والنشر)

تحت الطبع :

شيطان يعبث (مجموعة قصصية)



تهنئة إلى أمل العروبة
الرئيس جمال عبد الناصر
وتحية مباركة إلى الشعب العربي الأصيل
فكري تادرس وشركاه
٦٤ شارع أبي الدرداء بالإسكندرية تليفون ٣٧٥٤٦
تجارة النحاس الأصفر والأحمر والألمنيوم من
شبكات وألواح وأسلاك



إلى السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة
نؤيد سياستكم تأييداً مطلقاً
معاهدين الله
أن نقف خلفكم صفاً واحداً
عهد الأحرار
والله أكبر والعزة للعرب
بالإسكندرية



إلى قائد العروبة ومحطم الاستعمار
ومحقق آمال العرب
الرئيس جمال عبد الناصر
عبد المسيح وشركاه
٥٣ شارع سعد زغلول بالإسكندرية تليفون ٣٥٦٦٧
تخليص - وارد - صادر - ترانسيت
تفتيش - مقاولات بحرية



السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أخلص آيات الولاء والفداء
وكلاء ومستأجرو وسماسرة بواخر
ووكلاء سياحة وتخليص
بورسعيد ، الإسكندرية ، القاهرة ، السويس

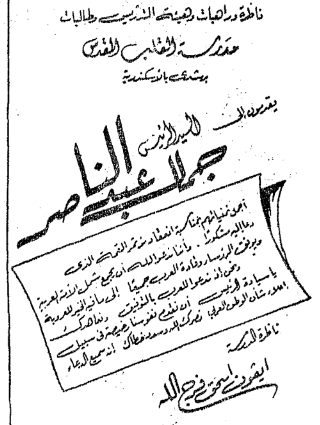


سلكت
أحسن صابون
كولد كريم للتواليت
سلكت
علامة الجودة
انتاج : شركة الملح والصودا المصرية ش.م.م



تهنئة مباركة إلى رائد العروبة
الرئيس
جمال عبد الناصر
وتحية خالصة إلى الشعوب العربية المجيدة
الشركة العصرية لإنتاج الملابس الداخلية
شارع زكي رجب بسموحة
تليفون ٧١٥٧٠ رمل اسكندرية


باسم الله
باسم آمال الأمة العربية
اخترنا طريق الثورة
طريق الاشتراكية
طريق العدل
طريق الحرية
بزعامة رائد العروبة
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
فسر على بركة الله
والشعب معك والله موفقك
أبناء شكر الله
١١ شارع طلعت حرب
بالإسكندرية



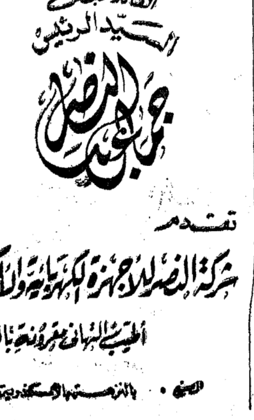
ناظرة وراهبات وهيئة التدريس وطالبات
مدرسة القلب المقدس
بالاسكندرية
يتقدمون إلى
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أجمل تمنياتهم بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الذى
دعا إليه مشكورا . وأننا ندعو الله أن يجمع شمل الأمة العربية
ويوفق الرؤساء وقادة العرب جميعا الى ما فيه الخير للعروبة
ونحن إذ ندعو للعرب بالتوفيق ونذاكرك
يا سيادة الرئيس أن نقدم نفوسنا رخيصة فى سبيل
إعلاء شأن الوطن العربى نصرك الله وسدد خطاك إنه سميع الدعاء
ناظرة المدرسة
ايفون اسحق فرج الله



الى بطل السلام ومحطم الأغلال
وناصر الأحرار
الرئيس
جمال عبد الناصر
أطيب التهانى وأخلص الدعوات
محمود أحمد بركات
ورشة قمصان
٧ شارع الانبيارى تليفون ٣٧٢٨٩ بالاسكندرية



يارب احفظ
زعيمنا البطل
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
إنك سميع مجيب
ابراهيم خليل
المقاول
٨ شارع كنيسة دبانة بالاسكندرية



إلى
القائد البطل
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
تتقدم
شركة النصر للأجهزة الكهربائية والالكترونية
أطيب التهانى مقرونة بالولاء
بالنزهة الاسكندرية

نقدم خالص الولاء إلى

رائد العروبة

السيد الرئيس جمال عبد الناصر

ونقدم أرواحنا في سبيل مجد أمتنا العربية

مؤسسة
يوسف ويوسف التجارية
يوسف صلاح الدين رفعت ويوسف السيد يوسف
شارع البيضاوي بالاسكندرية

شركة التجارة العربية والخارجية
زكي أبو دراع وشركاه
٢٤ طريق الحرية بالاسكندرية

شركة أقطان كفر الزيات
إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية
إسكندرية كفر الزيات القاهرة

شركة التوزيعات المحلية
مطاوع والأشاس وشركاهما
٦ شارع طلعت حرب باسكندرية

مدارس
السيد محمد كريم القومية
بسموحة رمل الأسكندرية

مدارس
محرم بك الثانوية للبنين
١٠ شارع أحمد أيوب
محرم بك إسكندرية

الى باعث مجد العرب ومجدد آمالهم ومحطم الرجعية والاستعمار

الى السيد الرئيس

جمال عبد الناصر

محمود احمد عبد الله

عضو اتحاد عملاء البصل

٦٧ شارع الباب غيط العنب

تليفون ٣٦٠٤٠ إسكندرية

مدرسة

الامريكان للبنات

شارع الطنان بك

آخر شارع الاسكندر الاكبر

المدارس

الارقسية الثانوية

الليلية والنهارية

شارع كنيسة الاقباط باسكندرية

س. ج. كوتاكيس

اشغال بحرية

وكالة اشغال بانكسندرية

٦٧ شارع النبي دانيال

مصبغة هيراكل

ايلي ساباه وشركاه

شارع سيدي الواسطي باسكندرية

محل فيكتور

فانوري وعقاد

ملابس جاهزة واقمشة وخردوات

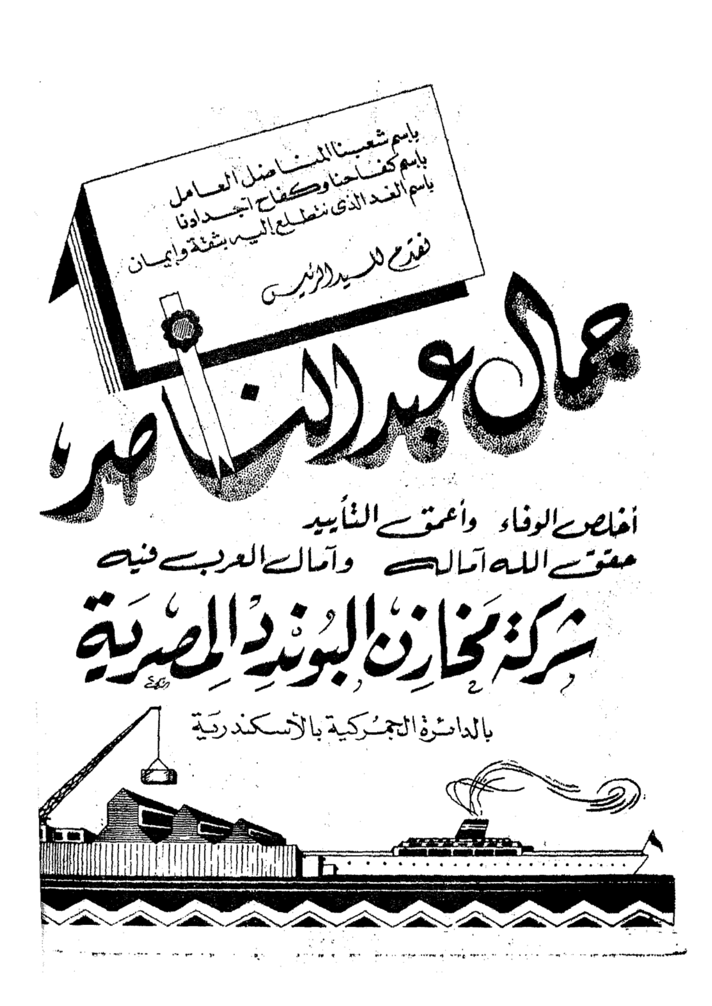
٢٩ شارع سعد زغلول

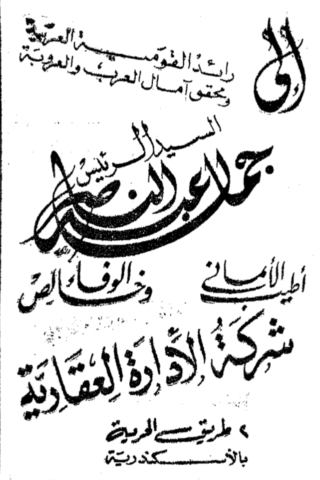
تليفون ٢٧٦٠٤ إسكندرية


أحذية
هيلتون
رجالي
حريمي
أطفال
بيبيه
أناقة
موديلات
صناعة ممتازة
ذوق وفن
فخر الصناعة المصرية



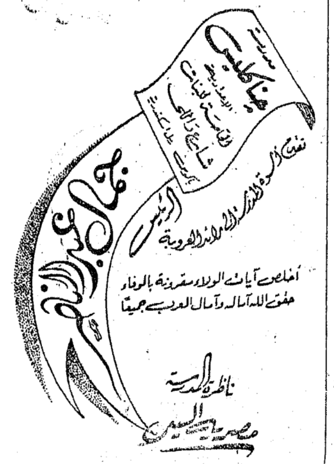
في هذه الأيام الخالدة
في تاريخ الامة العربية
وفي غمرة الأفراح بوحدة العرب الكبرى
نتقدم الى
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أطيب آيات الوفاء
ونعاهده عهد الأحرار أن نقف وراءه نحو أهدافنا
مقدمين أنفسنا وأرواحنا رخيصة من أجل مبادئنا
والله أكبر والعزة للعرب .
الشركة التجارية للأخشاب

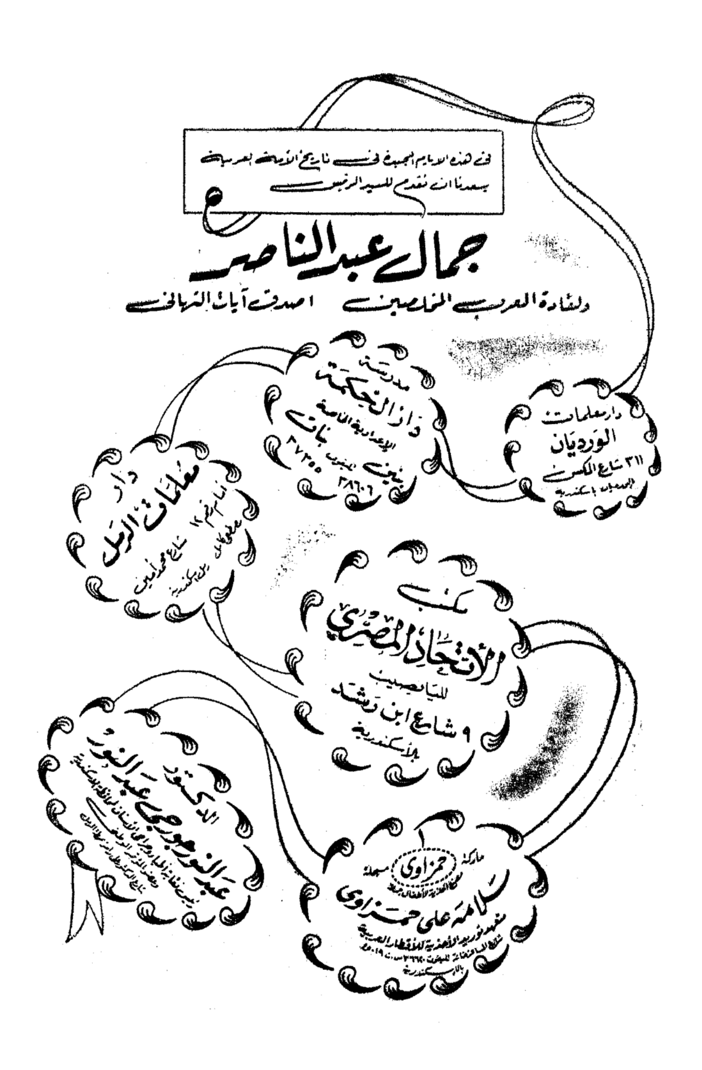

باسم شعبنا المناضل العامل
باسم كفاحنا وكفاح اجدادنا
باسم الغد الذى نتطلع إليه بثقة وايمان
نقدم للسيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أخلص الوفاء وأعمق التأييد
حقق الله آمالك وآمال العرب فيك
شركة مخازن البوند المصرية
بالدائرة الجمركية بالاسكندرية


إلى
رائد القومية العربية
ومحقق آمال العرب والعروبة
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أطيب الأماني وخالص الوفاء
شركة الإدارة العقارية
٢ طريق الحرية
بالإسكندرية


ونحن على الطريق الصاعد إلى المجد
وإلى حياة العزة والكرامة والرفعة
نتقدم إلى رائد العروبة وقائدها
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
بخالص التهاني في تحقيق أعز آمال العرب فيه
شركة الإسكندرية للغزل والنسج والصباغة
شارع محطة السوق - بباكوس


تحية خالصة إلى الشعوب العربية
وتهنئة مباركة إلى رائد العروبة
الزعيم البطل
جمال عبد الناصر
الحلواني الوطني عينو
إدارة علي أحمد عينو
١٢٠ شارع المحافظة
٦٦ شارع صفية زغلول
بالإسكندرية


مدرسة
الابتدائية للبنات
الرئيس
جمال عبد الناصر
أخلص آيات الولاء مقرونة بالوفاء
حقق الله آماله وآمال العرب جميعاً
ناظرة المدرسة

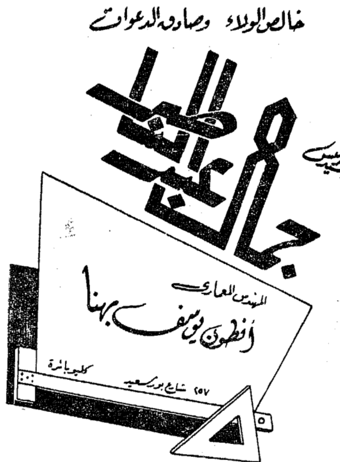


في هذه الايام المجيدة في تاريخ الأمة العربية
يسعدنا ان نقدم للسيد الرئيس
جمال عبد الناصر
ولقادة العرب المخلصين اصدق آيات التهاني
دار معلمات
الورديان
٣١١ شارع الكسر
بالإسكندرية
مدرسة
دار الحكمة
الإعدادية الخاصة
بنات
بنين
٢٧٣٥٥
٢٨٦٠٦
دار
مكتب
الاتحاد المصري
للبايصين
٩ شارع ابن رشد
بالإسكندرية
ماركة
حمزاوي
مسجلة
سلامة على حمزاوي
بالإسكندرية


من
قلوب خالصة عامرة بالإيمان
نقدم اطيب الدعوات واصدق التمنيات
للسيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أبو العلا وشركاه
شركة توصية بسيطة
مصنع العبوات المعدنية بشارع النعمان رقم ٢٨٦
صفيحة النجمة
تليفون ٢٢٢٩٠ - ٣٤٥٨٠
بالاسكندرية
العربى سلامة مسلم
٧١ شارع أبى الدرداء
بالاسكندرية
تليفون ٢١٢١٣
الشاذلى الهريدى حسن
خبير مثمن برقم ٤٠
وصاحب المزادات
٥٠ شارع البرنس ابراهيم
شركة النصر
لصناعة الزجاج والبللور
شارع المفتش بالحضرة
بالاسكندرية
محمد احمد عبد الرحمن
المدير الفنى
لمصنع نسيج الأسد
شارع المفتش بالحضرة
بالاسكندرية
شركة سيارات
الحاج ابراهيم محمد نصر
٧١ شارع أبى الدرداء
بالاسكندرية
تليفون ٢١٢١٣



A
A
شركة مطابع محرم الصناعية ش.م.ع
شارع قنال المحمودية - البراقلبي - النزهة - اسكندرية



خالص الولاء وصادق الدعوات
للرئيس السيد
جمال عبد الناصر
المهندس المعماري
أنطون يوسف بهنا
كليوباترة
٢٥٧ شارع بور سعيد



في غمرة الأفراح بوثبة
الأمة العربية
وفي هذه الأيام
المجيدة الخالدة
يسعدنا أن نقدم
لرائد العروبة
الرئيس
جمال عبد الناصر
أطيب آيات الولاء والوفاء
شركة النيل للحليج
٨ طريق الحرية باسكندرية



مدارس
سان جان انتيد
١ شارع أفلاطون
بالشاطبي حمامات
بالاسكندرية
مديرة وراهبات ومدرسات المدرسة
يقدمون أجمل التهاني لرائد العروبة
الرئيس
جمال عبد الناصر
ضارعين إلى الله
أن يوفق خطاه لما فيه
مجد الأمة العربية
مديرة المدرسة
فرجيني عجبان



خالص الولاء وصادق الود
للسيد الرئيس
جمال عبد الناصر
مدرسة اتحاد التعليم الحر
الإعدادية الثانوية
١٢ شارع كانوب كامب شيزار
باسم الأمة العربية إخترنا
طريق الثورة
طريق الإشتراكية
طريق الحرية
الرئيس
جمال عبد الناصر
مصنع قمصان
عرفة
٣ شارع المهندس محمود فهمي
تليفون ٢٠٣٩٨ بالإسكندرية
تهنئة مباركة
إلى
الشعوب العربية
وتحية خالصة
للسيد الرئيس
جمال عبد الناصر
شركة اسكندرية
للمشروبات المقطرة
بولاناكي
شارع السراي ٢/٣ بوابور المياه باسكندرية
إلى
رائد القومية العربية
ومحقق آمال العرب والعروبة
السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
أطيب الأماني وخالص الوفاء
الشركة الشرقية للأقطان
٨ طريق الحرية
تليفون ٣٧١٤٠/٣٩١٢٩ و ٢٢٩٣٨
صادرات إلى جميع أنحاء العالم


نسر ممتاز
تحقيقاً السياسة الكفاية الذاتية يسر الشركة أن نعلن
بأن مصانعها تقوم بإنتاج جميع المقاسات من الإطارات
NISR
برهان ثقتي أني ما وصلت إليه صناعة الإطارات
في العالم لتوفير احتياجات الجمهورية العربية المتحدة
والبلاد العربية من الإطارات
صالات البيع والعر
الإسكندرية :
القاهرة :
شركة النقل والهن
مصنع الإطارات والكاوتشوك
الإدارة العامة والمصانع :
سموحة ، رمل الإسكندرية